أرنست همنجواي

الشيخ والبحر



الشيخ والبحر

الشيخ والبحر

أرنست همنغواي

ترجمة
د. زياد زكريا

دار الشرق العربي
بيروت ـ لبنان ـ ص. ب ـ ١١/٦٩١٨
حلب ـ سورية ـ ص. ب ـ ٤١٥

أرنست هيمنجواي
«١٨٩٩ ـ ١٩٦١»

أرنست هيمنجواي كاتب هذه القصة أديب أمريكي ولد في ٢١ يوليو سنة ١٨٩٩، وتلقى تعليمه الاولي في المدارس العامة بالولايات المتحدة، ثم انقطع عن مواصلة دراسته ليعمل كصحفي ناشىء بصحيفة «كينساس سيتي ستار»، ثم التحق في الحرب العالمية الاولى باحدى فرق الاسعاف وأصيب بجراح خطيرة من شظايا قنبلة في احدى مدن ايطاليا سنة ١٩١٨، وبعد عودته الى أمريكا اشتغل بالتحرير في صحيفة بشيكاغو، ثم متشيجان، وانتقل الى فرنسا في ديسمبر عام ١٩٢١ كمندوب صحفي لجريدة «تورنتو ستار»، وقضى خمس سنوات في العمل الصحفي الجدي في فرنسا وايطاليا وسويسرا واسبانيا وألمانيا واليونان. وقد أكسبته خبرته في هذا المجال اسلوباً كان له أكبر الاثر في الادب القصصي الامريكي.

وفي عام ١٩٢٣، نشر أول مجموعة قصصية له بعنوان: «ثلاث قصص، وعشر قصائد» وقد نشرت في باريس، ثم أعقبها بالمجموعة التي لقبت باسم «في وقتنا» وقد نشرت في نيويورك عام ١٩٢٥.

وفي عام ١٩٢٦، ظهر أول كتاب له حقق نجاحاً عالمياً وعنوانه «الشمس تشرق أيضاً» وقد تناول موضوعه قصة مؤثرة خرافية عن فريق من المطرودين من حفل في باملونا. ثم توالت كتبه الاخرى ومنها «مناهل الربيع» عام ١٩٢٦، ثم «رجال بدون نساء» في عام ١٩٢٧، ثم «الرابح لا ينال شيئاً» في عام ١٩٣٣. وانطلق صيته كقصاص حينما نشر قصة «وداعاً للسلاح» عام ١٩٢٩، وقد تضمن هذا الكتاب نظريته

في عدم اخلاقية الحرب وهي مستمدة من خبرته في الحرب، وتدور وقائعها بين ضابط أمريكي، وممرضة بريطانية في ايطاليا ابان الحرب.

وفي عام ١٩٣٢، اقتحم هيمنجواي ميداناً آخر غير ميدان القصص بكتابه «الموت بعد الظهر» وقد تناول فيه حرب الثيران في اسبانيا الذي أصبح هواية نفسية للمؤلف أكثر من عشر سنوات ثم تلاه «تلال أفريقيا الغراء» ويسرد فيه مشاهداته بأساليبه القصصية في أسفاره في تنجانيقا. ثم قصته «من له، ومن ليس له» وهي تروي مغامرات رجل من قطاع الطرق في كاريبيا ـ وقد كانت هذه القصة أقل مؤلفاته نجاحاً.

وفي عام ١٩٤٠، أثارت الحرب الاسبانية خيال هيمنجواي فكتب عنها قصته «لمن تدق الاجراس» وهي قصة متطوع أمريكي ينضم الى صفوف حرب العصابات خلف خطوط الثوار في جبال جرادارام. وقد نعى فيها المؤلف خيانة القوات الاجنبية الفاشية والشيوعية للشعب الاسباني. ونشر هيمنجواي في سلسلة قصص الحرب مجموعة من القصص تحت عنوان «المحاربون» عام ١٩٤٢. ثم قصة «الى الغابة عبر النهر» عام ١٩٥٠، وهي أيضاً اسطورة الايام الثلاثة الاخيرة من حياة ضابط أمريكي في فينسيا. وقد عبر فيها المؤلف عن انفعالاته تجاه الحرب العالمية الثانية التي كان قد اشترك فيها على مستويات متعددة.

وفي عام ١٩٥٢، نشر هيمنجواي قصة «العجوز والبحر» وهي القصة التي ظفرت بجائزة بوليترز الامريكية لعام ١٩٥٢، وكانت مقدمة لفوزه بجائزة نوبل عام ١٩٥٤، وقد امتدح تقرير جائزة نوبل «تحكمه القوي في الاسلوب القصصي الحديث» وفضلا عن براعة هيمنجواي في الاسلوب فان قصصه تمتاز بقدرة عالية على سرعة تعاقب الوقائع واشتباكاتها وطابعها الدرامي القوي.

وقد كانت هذه القصة الاخيرة اخر ما كتبه هيمنجواي الذي توفي في ولاية ايداهو الامريكية عام ١٩٦١، على أثر حادث غامض.

هذه القصة

تقع هذه القصة في منتصف الطريق... بين الأقصوصة والرواية. ومع ذلك فانها قد نهضت دليلا من أدلة القياس الفكري العالمي على أن الكيف انما هو أعمق أثرا من الكم، ومصداق هذا أن قضاة جائزة نوبل، حينما منحوا صاحب هذه القصة، أرنست هيمنجواي، جائزة الادب، وذلك في نوفمبر من عام ١٩٥٤، لم يشيروا الى قصص اخرى أكثر منها طولا، كما أشاروا الى هذه القصة بالذات، فقالوا ان الجائزة قد منحت له «لتفوقه في فن الرواية الحديثة، كما يظهر ذلك بوضوح في قصته الاخيرة: العجوز والبحر».

* * *

ولقد نشرت هذه القصة لأول مرة عام ١٩٥٢، وصادفت هوى في نفوس الناس في كل صقع من أصقاع العالم، مما حمل المترجمين على ترجمتها الى كل لغة، كما حمل الطابعين والناشرين على اصدار عدة طبعات متتالية منها، مجردة أو مقترنة بالصور التي أفتن في مجالها كثير من الرسامين العالميين.

والصور التي تقترن بهذه الترجمة التي نقدمها لقراء العربية، من صنع ريشتي الفنانين العالميين «ك. ف. تانيكليف»، و«ريموند شبرد» وكل منهما صاحب مدرسة في الفن غير مدرسة الآخر. ومع هذا فقد اشتركا في تصور قسمات العجوز والغلام، وسمات الخليج والمحيط والزورق والسمك، تصورا قد يختلف في اسلوبه، ولكنه يلتقي في تأثيره.

وهذه القصة ليست كسائر القصص... ذلك أن من بين سمات القصص أن يكون لها ابطال كثيرون. أما هذه القصة، فانها، اذا

استثنينا بضع صفحات معدودة منها تقع في أولها وآخرها، تقوم كلها على بطولة بطل واحد، هو العجوز.

وليست هناك امرأة...

واذا جاز أن نعدد في هذه القصة أبطالا غير هذا العجوز، فان هؤلاء الابطال ليسوا من البشر.

فالبطل الثاني ــ الذي يقابل دور المرأة في كل قصة عادية ــ هي السمكة الكبيرة.

وأصحاب الأدوار التالية في البطولة، هم: المحيط، والرياح، والدلافين، وألوان غير ذات عدد من الاسماك والاعشاب والطيور البحرية.

ولا نحسب أن أحداً من كتاب القصة العالميين قد استطاع أن يجمع أبطالا كأبطال هذه القصة، وأن يحركهم على هذه الصورة مثلما جمع أرنست هيمنجواي أبطال قصته وأتاح لهم أن يتحركوا.

ونحن نعرف أن الرجل كان مفتوناً بكوبا، وكان كثير التردد على شواطئها. ولهذا فانه على الرغم من اخلاصه لأمريكيته، لم يستطع ــ من ضعفه نحو كوبا ــ أن يخفي ما يحس به من عطف نحو الزعيم الكوبي الثائر «فيدل كاسترو» خصيم بلاده الاول في نصف الكرة الغربي. ومن حبه لكوبا، ومن خبرته بشواطئها وأمواجها، جعلها مجالا لأحداث قصته هذه، التي تدلنا على مدى المام مؤلفها بالبحر وأحواله ورياحه وتياراته وسكانه الفوقيين والتحتيين، في تفصيل لا يعرفه إلا أمهر الصيادين.

ومرة أخرى، نقول اننا اذا استثنينا بضع صفحات معدودة في أول الرواية وآخرها، لا نجد بطلا من البشر طوال قراءتنا لهذه القصة، إلا العجوز وحده.

ومن هنا تنبثق الصعوبة الكبرى أمام كاتب القصة، حينما يريد أن

يصور موقفاً ما بأسلوب من أساليب الحوار، فلا يجد أمامه إلا العجوز، يحدث نفسه طوراً ويفكر بصوت عال تارة، ويخاطب السمكة تارة أخرى وقد يكلم الله عرضاً، أو يلعن الاقدار في ساعة ضيق.

وقد يتساءل قارئي: ما هدف هذه القصة، التي قد تبدو للقارىء العادي غير ذات هدف؟ أقول لهذا القارىء ما قاله الناقد الكبير «أريك لاينليتر» بعد أن انتهى من قراءة هذه القصة:

«ان هيمنجواي لم يكتب في حياته أجمل من هذه القصة التي صور فيها الجراح البطولية للانسانية. انه كتاب صغير في كمه، ولكني أنصحك بأن تقرأه ثلاث مرات».

وانك ــ ان قرأته ثلاث مرات ــ قد تصل الى أعماق «هيمنجواي» وهو يصور لذة الكفاح حتى آخر العمر، وكذلك فائدة التجربة التي كثيراً ما تغني عن القوة، واثر الحاجة التي هي أم الاختراع، وطاقة الرجولة في الصبر على المكاره... الى أن يصل بك المؤلف ــ في آخر الرواية ــ الى السمكة التي لم يبق منها إلا عظمها وذيلها ليصبحا حديث الناس من مقيمين أو وافدين.

فاذا كنت من أهل الحكمة، أدركت الهدف الاخير، وهو أن لكل مجاهد أجره، وان لم يستطع المجاهد أن يلمس جوهر هذا الاجر، فانك أنت ــ أيها القارىء ــ تلمسه في كلمة طيبة تقال عن هذا المجاهد، فتصبح عطراً في سيرة حياته بعد أن تحترق ذبالة النور الأخيرة من هذه الحياة.

ـ ١ ـ

كان الرجل قد بلغ من الكبر عتيا..

ولكنه لا يزال رابضاً في زورقه، وحيداً، يطلب الصيد في خليج «جولد ستريم». وقد عبرت به حتى الساعة، أربعة وثمانون يوماً لم يجد عليه البحر خلالها بشيء من الرزق.

في الايام الاربعين الاولى منها، كان له غلام يعينه على أمره.

ولكن أربعين يوماً انطوت على غير طائل، فلم يسع والدا الغلام إلا أن يقطعا لولدهما بأن هذا العجوز مشؤوم لا يطلع نجمه إلا على نحس.

وهكذا نزل الغلام عند رغبة أبويه، وترك صحبة العجوز، وذهب يعمل في زورق آخر جاد البحر على ذويه بثلاث سمكات طيبات منذ أول أسبوع.

وكان يحز في قلب الغلام أن يرى العجوز قافلا الى الشاطىء في نهاية كل يوم، وزورقه خاوي الوفاض، فلا يملك إلا أن يهرع إليه ليعاونه في لملمة حباله، وحمل حربة صيد القرش، وطي الشراع حول الصاري.

وكان هذا الشراع المرقع بالخيش اذا ما انطوى حول صاريه، بدا كأنما هو علم للهزيمة المتصلة.

كان العجوز جسدا ناحل العود، توغلت في قفاه غضون عميقة، وقد عدت حرقة الشمس في انعكاساتها على مياه البحر، على بشرته عدوانا

قاسياً، فملأت خديه بالبثور، واستدارت فنثرت الكثير منها على جانبي وجهه.

أما كفاه، فقد حفرت فيهما الحبال التي طالما جرر بها الاسماك الثقيلة، جراحاً عميقة الغور ليس بينها جرح جديد، فهي جميعاً قديمة قدم الحفريات في صحراء عديمة السمك.

كان كل ما فيه عجوزا مثله.. إلا عينيه.

عيناه كانتا في صفاء مياه البحر، يطل منهما المرح، وعدم الاعتراف بالهزيمة.

* * *

آذن النهار بنهايته.

واستقر الزورق، وألقى مراسيه على الشاطىء..

وقال الغلام للعجوز وهما يسيران صعدا صوب الشاطىء:

ـ الآن... أستطيع أن أعود فأعمل معك يا سانتياجو، فقد ادخرت بعض النقود.

كانت كلمات الغلام آية عرفان الجميل، فقد كان يحب العجوز، لأنه هو الذي لقنه أصول مهنة الصيد.

ولكن العجوز لم يطق هذه المنة، فقال للغلام:

ـ لا يا ولدي انك تعمل في مركب حسن الطالع، فابق مع أصحابه.

ولكن... أتتذكر كيف عبرت بك ذات مرة سبعة وثمانون يوماً دون أن نظفر خلالها بسمكة واحدة. ثم ما لبثت الآية أن انقلبت، وجعلنا نظفر بعدة سمكات كبيرات كل يوم، طوال ثلاثة أسابيع؟

فأجاب العجوز بقوله:

ـ نعم أذكر، وأعرف أنك لم تتخل عني لأنك أصبحت في شك من أمري.

ـ ان أبي هو الذي حملني على تركك. واني لغلام، ولا أعصي له أمراً.

ـ نعم يا ولدي. هذا طبيعي.

ـ انه قليل الثقة...

ـ أما نحن، فكلنا ثقة. ألسنا كذلك؟

ـ أجل.

واستطرد الغلام يقول:

ـ أتأذن أن أقدم لك قدحاً من البيرة في محل «الشرفة» قبل أن نحمل المعدات الى بيتك؟

ـ ولم لا؟ انها حفاوة الصياد بالصياد.

* * *

وانتهيا الى «الشرفة»...

ووقعت على العجوز أنظار جماعة من شباب الصيادين، فاتخذت منه مادة للتندر والضحك. على أنه لم يغضب مما يصنعون.

أما شيوخ الصيادين، فقد راحوا يتطلعون اليه في أسى ورثاء واشفاق، ولكنهم لم يظهروا له ما يستشعرون نحوه، بل جعلوا يتحدثون في تأدب عن التيار، وعن الاعماق التي ألقوا بشباكهم اليها، وعن نعمة الطقس الطيب المنتظم، وعن كل ما يلم بهم في حياة البحار.

وكان الصيادون الذين طاب رزقهم في ذلك اليوم من سمك «البوري» قد جمعوا حصيلة صيدهم، وحملها أربعة رجال على وفاض ضخم مشدود الى لوحين من الخشب، وساروا بها الى بيت السمك، في انتظار السيارة المثلجة لتحملها الى السوق في هافانا.

أما من كان نصيبهم من صيد اليوم أسماك القرش، فقد حملوها الى مصنع القرش عند الشاطىء الآخر من القرية، حيث شدت الى الالواح، وأخرجت أكبادها، وسلخت جلودها، وفصلت زعانفها، وقطعت لحومها شرائح للتمليح.

كانت الريح اذا هبت من الشرق، حملت معها رائحة منبعثة من مصنع القرش.

أما اليوم، فالريح تهب صوب الجنوب، ثم لا تلبث أن تخبو، فتخبو معها الرائحة.

وكان الجو مشمساً لطيفاً في «الشرفة».

وصاح الغلام بصاحبه العجوز:

ـ سانتياجو...

فأفاق العجوز من سبحة بعيدة عبر ذكريات السنين، وقال وقدح البيرة في يده:

ـ نعم...

ـ أتحب أن أذهب فأجيئك ببعض السردين، لعلك تحتاج اليه في الصيد غداً؟

ـ لا يا ولدي. اذهب والعب البيسبول. انني لا أزال قادرا على العمل. وسيتولى روجيليو حمل الحبال.

ـ بل لا بد أن أذهب لأجيئك بها. فما دمت لا أملك أن أعاونك في الصيد، فما سبيلي إلى عونك بأية وسيلة؟

ـ لقد أصبحت رجلا بالفعل. وقدمت لي قدحاً من البيرة.

وتساءل الغلام:

ـ كم كان عمري عندما أخذتني في زورقك لأول مرة؟

ـ خمس سنوات. وقد كدت تهلك عندما أخرجت حبالي سمكة هائلة، أوشكت وهي تقاوم أن تمزق الزورق ارباً. أتراك تذكر هذه الواقعة؟

أذكر أن ذيلها راح يضرب الزورق ويلطم قيدومه بعنف صارخ. وأذكر أنك يومئذ ألقيت بي في حنية الزورق فوق الحبال المبتلة، في حين جعل الزورق يترجع في رعشة لحموم، وكنت أسمع صوتك وأنت تقاوم وكأنما حطاب يقد جذع شجرة هائلة ويطرحها أرضاً.. وكان دمها يتفجر حولي.

ـ أحقاً تذكر هذا المشهد، أم تذكر ما رويته لك عنه؟

ـ بل أذكر كل ما كان، منذ أن خرجنا معاً لأول مرة.

فتطلع اليه العجوز بعينيه الوامقتين الواثقتين، برغم ما أحرقت الشمس من جفونهما، وقال له:

ـ لو أنك كنت ابني، لخرجت بك الى الدنيا لتغامر معي. ولكنك ملك لأبيك وامك. وانك لتعمل في مركب حسن الطالع.

ـ هل أذهب فأجيئك بالسردين[1].. وبعض الطعم أيضاً؟

ـ انني لم استهلك طعم اليوم، وسينفعني غداً. لقد وضعته في الماء الملح ليصلح لغد.

ـ دعني أجيء لك بأربع قطع طازجة من الطعم.

فأجاب العجوز متأثراً، ولما يزل به كثير من الامل وكثير من الثقة، وكأنما انعشتهما في كيانه خطرة النسمات!

ـ قطعة واحدة تكفي.

ـ بل اثنتين.

ـ حسناً... ولكن غير مسروقتين؟

(١) هذا السردين يستخدم كطعم للاسماك الكبيرة ويوضع في داخله طعم آخر.

ـ لا ضير علي اذا أنا سرقتهما من أجلك. ولكن الواقع أنني اشتريتهما.

ـ أشكرك.

وراح العجوز يتملى مشهد البحر، ثم قال:

ـ هذا التيار يبشر بغد طيب.

فسأله الغلام:

ـ إلى أين متجه غداً؟

ـ سأذهب بعيداً، لأعود مع الريح عندما تغير وجهتها، ولأخرج من الماء قبل انبلاج الخيط الابيض من الفجر.

ـ سأحاول أن أحمل الذي أعمل معه على الذهاب بعيداً هو الآخر، حتى اذا وقعت لك سمكة ضخمة هرعنا اليك لنعينك على أمرها.

ـ ولكن صاحبك لا يروق له أن يوغل كثيراً في البحر.

ـ أجل. ولكني سأحدثه عن شيء لا تراه عيناه، كطائر بحري مثلا يتعقب فريسة في الماء، وهكذا أحمله على الايغال في البحر، ولو وراء دلفين.

ـ أبصره ضعيفه الى هذا الحد؟

ـ يكاد يكون أعمى.

ـ عجيب... مع أنه يسير مستقيماً، ولا ينعرج خلال سيره في البحر مما يذهب بأبصار الملاحين.

ـ ولكنك كثيرا ما انعرجت خلال سيرك في البحر، موغلا في شاطىء البعوض، لسنوات طويلة، وما زالت عيناك بخير.

ـ أنا عجوز عجيب يا ولدي.

ـ أو ترى أن لك جلداً على صيد الاسماك الكبيرة حتى الآن؟

ـ أظن هذا. واني لأستعين عليها بما عندي من حيل كثيرة.

ـ قم بنا نحمل المعدات إلى البيت، ثم آخذ الشبكة الصغيرة لأتصيد بها بعض السردين.

* * *

وقاما الى الزورق فحملا معداته...

حمل العجوز الصاري على كتفه، في حين حمل الغلام الصندوق الخشبي والحبال والحربة وما اليها. وتركا عليه الطعم تحت مؤخر الزورق الى جانب الهراوة التي تؤدب الاسماك الكبيرة.

صحيح أن أحداً من أهل القرية لم يكن ليفكر في سرقة متاع العجوز. ولكنه كان يؤثر أن يحمله معه الى بيته لأن قطرات الندى تضر بالشراع والحبال الثقيلة.

أما الصنانير والحربة، فقد كان العجوز يدرك أن ما فيها من قلة الاغراء غير خليق بأن يحمل أحداً من أهل الحي على مد يده اليها.

ـ ٢ ـ

وسارا صعدا في الطريق الى كوخ العجوز، ودلفا من بابه المفتوح.

وانزل العجوز الصاري الذي يلتف حوله الشراع عن كتفه وأسنده الى الارض.

أما الغلام، فقد وضع الصندوق وبقية ما يحمل من معدات الى جانب الصاري الذي يكاد يبلغ في امتداده طول الغرفة اليتيمة التي يتألف منها كوخ العجوز.

كان الكوخ مصنوعاً من جذوع النخيل، وليس فيه من متاع الدنيا

أكثر من مخدع ومائدة، ورقعة خاوية من الارض التراب، يخصصها العجوز لطهر لقمته على الفحم.

وعلى بعض جدران الكوخ صورة ملونة للقلب المقدس، واخرى للعذراء.

وهناك بعض مخلفات زوجته الراحلة..

كانت لها صورة فوتوغرافية باهتة الالوان، معلقة على الحائط.

ولكن هذه الصورة كانت تشعره دائماً بقسوة الوحدة كلما وقع بصره عليها، فآثر أن يهبط بها عن الحائط، ويضعها على رف في ركن الكوخ، خلف قميصه النظيف اليتيم.

* * *

وسأله الغلام:

ـ ماذا تأكل الليلة؟

ـ عندي صحن من الارز الاصفر والسمك. أتأكل معي؟

ـ لا، بل آكل في بيتي. هل أوقد لك النار؟

ـ لا حاجة بنا الى اشعالها الآن. وقد آكل الارز بارداً.

ـ أتأذن لي أن آخذ الشبكة الصغيرة؟

ـ طبعاً.

وكان الغلام يعرف أن الشبكة الصغيرة لا وجود لها. وهو يذكر متى باعاها ليستعينا بثمنها على القوت. ولكن كان يلذ لهما أن يتخيلا كل يوم أنها لا تزال باقية.

وعلى هذا القياس أيضاً، لم يكن هناك صحن فيه أرز أصفر ولا سمك...

وكان الغلام يدرك هذه الحقيقة أيضاً...

وذكر العجوز أن اليوم التالي هو يومه الخامس والثمانون في البحر... وقد مر ما مر من الايام بغير صيد... فقال الغلام:

ـ خمسة وثمانون؟.. لعل هذا الرقم مجلبة للحظ. ما ظنك بي لو رأيتني أخرج بسمكة تزن أكثر من ألف رطل؟

ـ سآخذ الشبكة الصغيرة، واذهب في طلب السردين. أما أنت، فاخرج واجلس في الشمس أمام الباب.

ـ حسناً. سأفعل ما تقول. وعندي جريدة أمس، اجلس في الشمس واقرأ صحيفة البيسبول.

ولم يكن الغلام يدري أهي حقاً جريدة أمس، أم أنها مجرد خيال كبقية ما تحدثا عنه؟

ولكن العجوز مد يده تحت المخدع، فتناول الصحيفة قائلا:

ـ لقد أعطاني «بيريكو» إياها ونحن في «البوديجا».

وهم الغلام بالانصراف وهو يقول:

ـ سأعود اليك حالماً أظفر بالسردين. وسأحتفظ بنصيبك ونصيبي معاً في الثلج، الى أن نتقاسمهما في الصباح. على أن تخبرني بأنباء البيسبول عندما أعود.

ـ ان فريق «اليانكي» لا يخسر أية مباراة... مطلقاً.

ـ ولكني مشفق عليه من هنود «كليفلاند».

ـ ثق أبطال «اليانكي» يا ولدي. واذكر «ديماجيو» العظيم.

ـ بل لا أزال مشفقاً عليه من فريقين: نمرة «ديترويت» وهنود «كليفلاند».

ـ لا تجانب الحق، وإلا أشفقت أيضاً من حمر «سنسناتي» وبيض «سوكس أوف شيكاجو».

ـ سأتركك تدرس الموقف، على أن تخبرني بالنتيجة عندما أعود.

ـ أتراه من الرأي أن نشتري تذكرة يانصيب تنتهي بالرقم ٨٥؟ ان غدا هو يومي الخامس والثمانون.

ـ نستطيع أن نفعل هذا. ولكن ما رأيك في الرقم ٨٧؟ ألا يذكرك باليوم الذي سجلت فيه الرقم القياسي في الصيد؟

ـ هذا لا يحدث مرتين في العمر. ولكن قل لي: أترى أنه من الميسور الحصول على تذكرة يانصيب تنتهي بالرقم ٨٥؟

ـ سأطلب واحدة يتوافر فيها هذا الشرط.

ـ ولكن ثمن الورقة الواحدة دولاران ونصف الدولار. فممن نقترض هذا المبلغ؟

ـ هذا سهل. انني أستطيع أن أقترض دولارين ونصف دولار في أي وقت.

ـ وأحسب أنني أستطيع هذا أنا الآخر. ولكني أؤثر ألا أقترض فان من يبدأ الاقتراض ينتهي بالتسول.

وعبرت لحظة من الصمت، خرج منها الغلام بقوله:

ـ تذرع بالدفء أيها العجوز، واذكر أننا في شهر سبتمبر.

فأجاب العجوز:

ـ الشهر الذي تكثر فيه الاسماك الكبيرة. أما مايو، فان كل امرىء يستطيع أن يزعم فيه أنه صياد.

ونهض الغلام قائلا:

ـ سأذهب الآن... من أجل السردين.

وحينما عاد الغلام الى الكوخ، كان العجوز قد استغرقه النوم وهو جالس على مقعده.

وكانت الشمس قد مالت الى الغروب...

وتناول الغلام بطانية من مخلفات الجيش كانت على المخدع، فنشرها فوق ظهر المقعد وعلى كتفي العجوز...

كانت للعجوز كتفان عجيبتان، أكلت منهما السنون، ولكنهما لا تزالان قويتين.

وكذلك عنقه... كانت عليه سمات القوة.. وقد أوشكت تلك الغضون أن تمحي حينما تدلي رأسه الى الامام في نومته.

أما قميصه، فقد تكاثرت عليه الرقع، حتى شابه شراع زورقه. وقد عبث الوهج بهذه الرقع، فأصبح كل منها بلون.

كان رأس العجوز، اذ هو كذلك، يبدو موغلا في الهرم، حتى لكأنه ــ وقد أسدل جفونه على عينيه ــ قد تجرد من كل معالم الحياة.

أما الجريدة، فكانت لا تزال في حجره، نائمة بين ركبتيه وثقل يده ملقاة فوقها، ونسمات الليل طائفة به، وقدماه حافيتين.

هكذا تركه الغلام...

وهكذا عاد فألفاه.

وربت الغلام فوق ركبة العجوز، وصاح به:

ــ قم أيها العجوز.

وفتح العجوز عينيه، ومرت هنيهة عاد خلالها الى واقعه، من أحلام سحيقة المدى.

وابتسم، وسأل الغلام:

ــ بم جئت؟

قال الغلام:

ــ جئت بالعشاء. وسنأكل معاً.

ـ لكنني لا أشعر بجوع شديد.

ـ هيا، كل... انك لن تستطيع أن تخرج للصيد وأنت جوعان.

ـ أجل... يجب أن آكل.

وهب العجوز من مكانه، وطوى الجريدة، ثم جعل يرفع البطانية ويلفها، فصاح به الغلام:

ـ دعها حول كتفيك.

ثم تابع قوله:

ـ ولن تخرج الى الصيد جوعان أبداً، طالما أنا على قيد الحياة.

فدعا له العجوز:

ـ ليهب لك الله طول العمر. ولترع حق نفسك.

ثم تأمل ما جاء به الغلام، وسأله:

ـ ماذا سنأكل؟

ـ فولا وأرزاً، وموزاً مقلياً، ويخني.

وكان الغلام قد جاء بالطعام في عمود ذي صحنين، من محل «الشرفة» وحمل في جيبه ملعقتين وشوكتين وسكينتين، كل زوج منها في منديل من الورق.

وسأله العجوز:

من أين لك هذا؟

ـ من «مارتن»... صاحب المحل.

ـ ينبغي لي اذن أن أشكره.

ـ لقد قمت بهذه المهمة، فلا حاجة بك الى شكره مرة أخرى.

ـ سأنفحه لحم بطن سمكة كبيرة يوماً ما، ولكن... أتذكر أنه صنع مثل هذا بنا من قبل؟

ـ أظن هذا.

ـ اذن... يجب أن أنفحه شيئاً أكثر من لحم بطن سمكة كبيرة، ما دام مشغولا بأمرنا الى هذا الحد.

ـ وقد أضاف الى عطائه بعض البيرة.. لي ولك.

ـ كنت أفضل البيرة المعلبة.

ـ أعرف هذا، ولكنها في قوارير هذه المرة، اسمها «هاتوي».. وسأعيد اليه القارورتين الفارغتين.

ـ هذا لطف منك.. والآن.. أنأكل؟

فقال الغلام برفق:

ـ هذا ما سألتك اياه، ولم أشأ أن أفتح العمود قبل أن تكون متأهباً للطعام.

ـ لقد تأهبت له.. لا أسألك إلا هنيهة أغتسل فيها.

وسأل الغلام نفسه: أين يغتسل العجوز؟ ان صنبور مياه القرية على مسيرة شارعين من هذا الطريق، كان على أن أجيئه بشيء من الماء، وقطعة من الصابون، ومنشفة. كيف لم أفطن إلى هذا؟ وعلي أيضاً أن أشتري له قميصاً آخر، وسترة للشتاء، وحذاء من أي نوع، وبطانية أخرى.

وهمهم العجوز والطعام في فمه:

ـ ان اليخني ممتاز.

وعاد الغلام يسأله:

ـ وما أنباء البيسبول؟

ـ في مباريات الدوري، فاز فريق «اليانكي».. كما قلت لك.

ـ ولكنه خسر مباراة اليوم!

ـ هذا لا يعني شيئاً، فان «ديماجيو» العظيم قد استرد مجده.

ـ ولكن لديهم أبطالا غيره في الفريق.

ـ هذا طبيعي، أما «ديماجيو» فشيء آخر، وأما أنباء الدوري الآخر.. بين فريقي «بروكلين» و«فيلادلفيا»... فاني أرجح كفة بروكلين، على أنني لا أزال أفكر في «ديك سيسلر» وأولئك الابطال الراسخين في الملاعب القديمة.

ـ أولئك لا نظير لهم، لقد رأيت «ديك سيسلر» يطلق أطول كرة شهدتها في حياتي.

ـ أتذكر أيام كان يتردد على «الشرفة»؟ لقد هممت مرة بأن أدعوه الى الصيد، فمنعني الحياء، فسألتك أن تدعوه أنت، ولكنك استحييت انت الآخر.

ـ نعم... كانت غلطة كبرى، وكان من الجائز أن يذهب معنا، ومن يدري... لعله كان يستمرىء الصيد ويواصل حياته معنا طوال العمر.

وهنا قال العجوز:

ـ كم أتمنى أن آخذ «ديماجيو» العظيم معي في رحلة صيد، يقولون أن أباه كان صياداً، ومن يدري... لعل أباه كان فقيراً مثلنا.. يحس باحساسنا.

ـ أما «سيسلر» العظيم... فان أباه لم يذق مرارة الفقر.. وكان يلعب في مباريات الدوري حينما كان في مثل سني.

ـ أما أنا، فعندما كنت في مثل سنك، كنت أتولى أمر الشراع في سفينة مربعة الاضلاع، ذهبنا بها الى افريقيا، ورأيت هناك السباع تعبث على الشاطىء في الليل.

ـ أعرف هذه القصة، فقد حدثتني بها من قبل.

ـ هل تؤثر ان نتحدث عن افريقيا أو عن البيسبول؟

ـ أؤثر الثانية، حدثني عن «ماكجرو» العظيم.

ـ كان يتردد على «الشرفة» هو الآخر فيما مضى، ولكنه كان جلفاً غليظ القول، وكان يبدو متعباً اذا شرب الخمر، وكان رأسه موزعاً بين أمرين: الجياد، والبيسبول، فكنت ترى جيوبه محشوة بقوائم أسماء الجياد دائماً، ولا يزال يردد أسماء الكثير منها كلما تحدث الى أحد في الهاتف.

فقال الغلام:

ـ وكان منظماً [1] كبيراً، بل ان أبي يقول عنه: انه كان أعظم المنظمين.

ـ ذلك لأنه كان يأتي الى هنا كثيراً، ولو أن «دوروتشر» قد واصل مجيئه الى هنا كل عام هو الآخر، لقال أبوك عنه أنه أعظم منظم.

ـ ومن هو أعظم المنظمين في رأيك؟ أيكون «أليوك» أم «مايك جونزاليز»؟

ـ أظن أنهما سيان.

ـ ومن أمهر صياد؟ أتراه أنت؟

ـ لا... بل اني أعرف أن هناك من هم أمهر مني.

ـ هناك كثير من مهرة الصيادين، وهناك أيضاً صيادون عظماء. أما أنت، فانك نسيج وحدك.

ـ شكراً لك، انك تغمرني بالسعادة، واتمنى على الله ألا تبرز من جوف البحر سمكة تثبت خطأ ما تزعم.

---

(١) المقصود بهذا التعبير «الكابتن» الذي يحسن تحريك فريقه كما يفعل «المايسترو» بالاوركسترا.

ـ ان جوف البحر لا يستطيع أن يطوي سمكة تجرؤ على هذا، ما دمت لا تزال قوياً.. كما تقول.

ـ قد لا أكون قوياً كما أعتقد، ولكنني أتذرع بكثير من الحيل، وأتزود بالعزيمة.

ـ أحسب أنه من الخير أن تذهب الآن الى مخدعك فتنام، حتى تصحو نشطاً في الصباح. وسآخذ المعدات معي الى الشرفة.

ـ تصبح على خير، وسأوقظك في الصباح.

ـ انك ساعتي المنبهة.

فأجاب العجوز قائلا:

ـ الشيخوخة هي ساعتي المنبهة، ولعلك لا تعرف لماذا يستيقظ العجائز مبكرين... ليجعلوا أيامهم الباقية أطول من أيام الناس..

فعقب الغلام بقوله:

ـ لست أدري، ولكني أعرف أن الصغار ينامون في ساعة متأخرة... وبصعوبة.

ـ نعم... اذكر هذا من عهد طفولتي، على أية حال، سأوقظك في الموعد.

ـ اني لا احب أن يوقظني صاحبي الذي أعمل معه، فان هذا يشعرني بأنني دونه.

ـ أحس بهذا...

ـ طاب منامك أيها العجوز.

ـ ٣ ـ

كان الكوخ ظلاما... وقد تناول العجوز والغلام عشاءهما في جنحه. فلما انصرف الغلام، انسرب العجوز الى مخدعه يتحسس موضع

قدميه. وخلع سرواله، وحشاه بأوراق الجريدة ليتخذ منه وسادة يريح عليها رأسه.

ثم نشر ما عنده من صحف قديمة فوق المخدع لعله يلين جسده، وتندثر ببطانيته، وسرعان ما استغرقه النوم.

وراحت أحلامه تحمله الى افريقيا، وترد له ذكريات صباه فيها، اذ طالما نعم بمشاهد ضفافها الذهبية، وشطآنها البيضاء التي تبهر العيون، ورؤوس أشجارها الضاربة في السموق، وجبالها السمراء الفارعة.

كانت أحلام شيخوخته تحمله كل ليلة الى تلك الشواطىء النائية، وتطالعه بمشهد العبيد يرددون صيحاتهم والقوارب قادمة بهم. وتغشاه رائحة القار والبلوط المنبعثة من سطح السفينة اذ هو مستلق عليه، ويزدحم في أنفه عبق أرض أفريقيا، الذي تحمله اليه نسمات الصباح.

وكان من شأن العجوز أن يصحو على عبق الارض اذا حملته اليه نسمات الصباح، وعندئذ يهب من مخدعه، ويلبس ثيابه ويذهب لايقاظ الغلام.

ولكن عبق الارض عادة تلك الليلة قبل موعده المألوف، في ساعة مبكرة. وأدرك العجوز هذه الحقيقة حتى وهو يحلم، فلم ينهض من مخدعه، وواصل ما يراه في منامه، ليشهد رؤوس الجزر الناتئة في البحر، وليطوف بكثير من موانئ جزر الكناريا ومراسيها البحرية.

ولم يعد العجوز ــ في أيامه هذه ــ يحلم بالعواصف، ولا بالنساء، ولا بالاحداث الضخمة، ولا بالحروب ومعارك القوة.. ولا بزوجته.

لم يعد يرى فيما يرى النائم إلا البلاد والسباع التي تلهو على الشاطىء كما تلهو القطط في الغسق.

وكان يحب مشهد هذه السباع حبه للغلام.

على أنه لم يحلم بالغلام قط.

* * *

صحا من نومه في موعده، وتطلع الى الباب المفتوح الذي تطل منه بقية من ضوء القمر. وفض سرواله مما فيه وارتداه وقضى حاجته خارج الكوخ، ثم ذهب يوقظ الغلام.

وذكر اذ هو في طريقه الى بيت الغلام، ان ذلك الدفء الذي يستشعره لن يلبث ان يزول، وتحل محله رعشة البرد اذ هو مقبل على مهمته في البحر.

* * *

كان باب بيت الغلام غير موصد. فدفعه العجوز، وانسرب الى الداخل حافي القدمين.

وكان الغلام ممدداً على أريكة في أول غرفة من غرف الدار، فرآه العجوز بوضوح على ضوء ما بقي من أشعة القمر الآفل، وتحسس احدى قدميه في رفق، فصحا الغلام وتمطى ملتفتاً اليه.

وأومأ العجوز إليه بتحية الصباح.

ونهض الغلام من سريره فتناول سرواله من فوق المقعد المجاور، واعتدل في جلسته على السرير، ولبس السروال وانسرب العجوز الى الخارج. وتبعه الغلام، وكان النوم لا يزال يخامر عينيه، فوضع العجوز ذراعه حول كتفيه في اشفاق، قائلا له:

ـ أنا آسف.

فقال الغلام:

ـ لا بأس. هكذا حياة الرجال.

وسلكا الى كوخ العجوز في الظلام، وكان الرجال يتحركون كالاشباح في دروب القرية حفاة الاقدام، يحملون صواري قواربهم.

وحينما بلغ العجوز وصاحبه الكوخ، حمل الغلام حبال الصيد والحربة، وحمل العجوز الصاري بشراعه المطوي على كتفه.

وسأله الغلام:

ـ أتحتسي قدحاً من القهوة؟

ـ بل نضع المعدات في الزورق، ثم نعود الى القهوة.

وانتهيا الى المقهى الذي يفتح أبوابه في هذه الساعة المبكرة ليقدم للصيادين أقداح القهوة باللبن. وسأل الغلام صاحبه، وكان النوم يوشك أن يفارق عينيه:

ـ كيف كانت نومتك أيها العجوز؟

ـ طيبة جداً. واني اليوم لمليء بالثقة.

فأجاب الغلام قائلا:

ـ وأنا أيضاً أشاطرك هذا الشعور. والآن... يجب أن أذهب فأجيء بنصيبك ونصيبي من السردين. وأجيء بالطعم الطازج أيضاً. ان الصياد الذي أعمل معه يحمل معداته بنفسه، ولا يحب أن يحمل احد له أي شيء.

فقال العجوز:

ـ اننا مختلفان. لقد كنت أجعلك تحمل المعدات وأنت في الخامسة.

ـ أذكر هذا.. سأعود حالا.. خذ قدحاً آخر من القهوة، فاننا نأخذ ما نأخذ هنا على الحساب.

ومضى الغلام يعبر فوق الصخور المرجانية حافي القدمين، في طريقه الى بيت الثلج، حيث يخزن الطعم.

وشرب العجوز قهوته في هوادة. وكانت هي كل زاد يومه، فقد مل

الطعام منذ سنوات، فلم يعد يحمل معه أي زاد للغداء.

كان كل زاده في رحلته، قارورة يضعها في حنية الزورق، فلا يحتاج بعدها الى شيء.

وعاد الغلام يحمل السردين وقطعتين من الطعم، وقد لفها جميعاً في صحيفة قديمة، وسارا صوب الشاطىء، وحصباء أرض تعبث بأقدامهما الحافية، حتى بلغا موضع الزورق، فدفعا به الى الماء.

وقال الغلام لصاحبه:

ــ حظ باسم أيها العجوز.

ــ ولك أنت الآخر يا ولدي.

ــ ٤ ــ

وعقد العجوز مجدافيه، وبدأ يجدف في الظلام، وقد امتلأت صفحة الماء بعدة زوارق قادمة من الشواطىء الاخرى.

وكان العجوز يسمع حفيف مجاديفها، وان لم ير منها شيئاً، لأن القمر كان قد غاب وراء التلال.

وكان الصمت يسود وجه الماء، اللهم إلا حفيف هذه المجاديف، وبضع كلمات تخرج من أفواه الصيادين الفينة بعد الفينة.

وما كادت القوارب تتجاوز ثغر الميناء، حتى تفرقت شتى في مياه المحيط العريضة، كل منها يضرب نحو البقعة التي يأمل أن يجد فيها رزقاً حسناً.

كان العجوز قد عقد عزمه على أن يضرب بعيداً، موغلا في البحر، وقد طرح وراءه رائحة الأرض وراح يشق الماء بمجدافيه، ويستاف رائحة المحيط الطاهرة في الصباح الباكر.

وتراءى له الاشعاع الفوسفوري المنبعث من أعشاب الخليج يلمع في

الماء، وهو يجدف في هذه البقعة في المحيط، التي يطلق عليها الصيادون اسم «البئر الكبيرة»... لأن بها عمقاً مفاجئاً يهبط الى سبعمائة غور[1]، تتجمع عنده جميع أنواع السمك، ويحتشد فيه الجمبري وسمك الطعم، وأحياناً أسراب «الحبار»[2] في الثقوب المتعمقة. وهي تطفو الى مقربة من السطح ليلا، فتتغذى بها الاسماك المطوفة.

* * *

وأحس العجوز في هذه الحلكة بالصباح مقبلا، وترامى الى سمعه. وهو يجدف، صوت مروق سرب من السمك الطائر، عرفه من حفيف أجنحته الجافة وهو ينطلق من الماء الى الجو في جنح الظلام.

وكان يؤثر هذا النوع من السمك، ويعتبره صديقه الاثير في المحيط.

أما الطيور، فكان يأسى عليها، ولا سيما صغار العصافير البحرية الرقيقة السمراء، التي تحوم فوق الماء طويلا، وقلما تظفر بشيء.

وراح يهمس الى نفسه:

ــ ان حياة الطير أقسى من حياة البشر، فيما عدا الطيور السارقة والكاسرة. لماذا خلقت هذه الطيور الصغيرة بهذه الرقة وهذا اللطف، وخلق المحيط بهذه القسوة؟.. ان المحيط رفيق ورائع الفتنة.. ولكنه يستطيع أن يكون قاسياً كل القسوة في غمضة عين. وهذه الطيور المحلقة، تغوص وتتصيد.. انها بأصواتها الرقيقة الحزينة، أرق من أن تستطيع مواجهة البحر.

ــ ٥ ــ

كان العجوز يعشق البحر...

كان يتملاه دائماً على طريقة الاسبان، حيثما يتملونه في وله، ويسمونه «لامار»...

---

(١) الغور في عرف الصيادين، ستة أقدام.

(٢) الحبار، حيوان بحري يعرفه الناس بسمك الحبر.

وأحياناً... يرمونه بنعوت غير محببة، ولكنهم برغم هذا يتحدثون عنه دائماً كما لو كانوا يتحدثون عن امرأة...

أما شباب الصيادين، ممن يستخدمون الشمندورات في تعويم شباكهم، وممن زودوا زوارقهم بمحركات آلية، حين كانت كبود اسماك القرش تباع بأثمان مجزية، فانهم عندما يتحدثون عن البحر، يقولون «ال مار»... ولا يقولون «لامار» كالسابقين...

انهم يجعلونه مذكراً لا مؤنثاً.. ينظرون اليه كرجل، لا كامرأة..

يتحدثون عنه كمنافس... أو كمجرد مكان من الكون.. وأحياناً كعدو خصيم.

أما العجوز، فكان يتخيله دائماً أنثى تنفح الحياة بالمنح العظيمة، أو تحتضن هذه المنح.

فاذا ما بدرت منها أمور وحشية، أو غير مستحبة، فما هذا إلا لأنها لا تملك أن تصنع شيئاً آخر.

وللقمر عليه أثره... نفس أثره على المرأة.

* * *

وظل العجوز يضرب بمجدافيه قدماً في المياه، دون أن يستشعر جهداً، فهو يسير بسرعة منتظمة، ووجه المحيط هادىء منبسط... اللهم إلا بضع شطحات عابرة تعتور التيار الفينة بعد الفينة، وقد ترك العجوز التيار يضطلع بثلث المهمة في شق العباب.

وبدأ النهار ينبلج... فأدرك العجوز أنه قد تجاوز ما كان قد قدر لنفسه أن يجتازه حتى تلك الساعة.

وقال لنفسه:

ـ لقد سبرت الاغوار السحيقة اسبوعاً كاملا، دون أن أصل الى

شيء. أما اليوم، فسأحاول أن ألتمس مخابىء أسراب «التونة» و«السقمري» وقد أظفر بسمكة كبيرة منها.

* * *

وقبل أن يكتمل ضوء الصباح، أعد العجوز ما عنده من الطعم، وسار مع التيار.

وألقى حباله في الماء مزودة بالطعم، أحدها الى أربعين غوراً، والثاني الى خمسة وسبعين.

أما الحبلان الثالث والرابع، فقد ألقى بهما الى عمق الماء الازرق... أحدهما الى مائة غور، والآخر إلى مائة وخمسة وسبعين غوراً.

وكانت كل قطعة من الطعم تخفي في جوفها خطافاً، وهي نفسها تختفي في جوف سميكة صغيرة من سميكات الطعم، وكل سميكة مطوية بدورها في جوف سردينة طازجة، وفي رأس كل سردينة خطاف مزدوج، له طرف في كل عين!

ولا تخلو مجموعة من هذه المجموعات كلها، من رائحة تلذ لأية سمكة كبيرة.

وكان الطعم الذي أعطاه الغلام اياه، يتألف من سمكتين طازجتين صغيرتين من نوع التونة والسقمري، هبطت بها حبال الصيد الى الغورين البعيدين، كأنما هما ريشتان في الماء.

أما الحبلان الآخران، فقد هبطا بقطعتين من الطعم احداهما صفراء، والاخرى زرقاء، كان العجوز قد استخدمهما من قبل فلم تخرجا من الماء بجواب.

على أنهما كانتا لا تزالان في حالة طيبة، ولا سيما بعد أن غلفهما بالسردين الطازج، لتطيب رائحتهما ويحسن فألهما.

وكان كل حبل من حبال الصيد يستدير في قامة القلم الرصاص،

ويتدلى من عصا خضراء خفيفة، بحيث تكفل أية لمسة تصيب الطعم في جوف الماء، تحريك العصا.

وتابع العجوز مسيره في الماء وهو يرقب اهتزازات العصا ليحفظ على كل حبل غوره.

* * *

وأوشك نور النهار أن يكتمل...

وطلعت الشمس من وراء البحر، فرأى العجوز بقية القوارب متناثرة فوق سطح الماء حتى الشاطىء.

وصعدت الشمس، ونشرت شعاعاتها على الماء، فعكسها الماء على عيني العجوز حتى أحرقتهما. فجعل يجدف وهو يتجنب النظر الى سطح البحر، مكتفياً بمراقبة حركات حباله في الاغوار، وقد أحكم مواضعها بحيث يهبط كل طعم الى البقعة التي يريدها له، بأسلوب لا يحسنه أحد من أهل الصيد سواه، أما من عداه من الصيادين، فانهم يتركون التيار يعبث بالحبال ما شاء له العبث، وقد دخل في روعهم انها هبطت الى مائة غور، بينما هي لم تهبط الى أكثر من ستين غوراً.

وجعل العجوز يحدث نفسه:

ـ انني أحكم مواقع ما ألقي به من الطعم. ولكن الحظ قد تخلى عني. ومن يدري؟... لعله لا يجانبني اليوم... كل يوم هو يوم جديد، يحمل أملا جديداً. ان حسن الطالع شيء رائع. ولكني أؤثر، اذا عملت شيئاً ان أحسنه. فاذا وأتاني الحظ، كنت متأهباً لاستقباله.

* * *

كانت الشمس قد سلكت مسيرة ساعتين في سماء النهار، ولم يعد وهجها يؤذي عيني العجوز كثيراً. فاستطاع أن يرنو نحو الشرق، فلم تقع عيناه على أكثر من ثلاثة قوارب على مدى رؤيته، قرب الشاطىء.

وقال العجوز:

ـ لكم آذت شمس البكور عيني طول حياتي. صحيح أنهما لا تزالان بخير حتى أنني لاستطيع أن أحدق بهما في عين الشمس رأساً عند اقتراب المساء، برغم أن ضوءها عندئذ لا يفقد الكثير من حدته. أما وهج الصباح فأليم.

وهنا لمح العجوز طائراً من الطيور المغردة يدف بجناحيه الاسودين في السماء أمام، ثم يهبط سريعاً، ثم ينحدر بجناحيه نحو الماء، ثم يحلق ويحوم مرة أخرى.

وصاح العجوز:

ـ انه لا يبحث... بل لقد لمح شيئاً بالفعل.

ومضى العجوز يضرب في الماء وئيداً نحو الموضع الذي يحوم فيه الطائر، دون أن يتعجل، ودون أن يهمل استقامة حباله في الماء، مبحراً في اتجاه الطائر.

وعلا الطائر في الجو، وظل يجدف بجناحيه، ثم خاض فجأة.

ولمح العجوز سرباً من السمك الطائر يخرج من الماء، ثم لا يلبث أن يطفو يائساً على السطح.

وتأمل العجوز الماء، ثم صاح:

ـ دلفين (١)... دلفين كبير!

وأسند مجدفيه، وجاء من حنية الزورق بحل صغير من السلك ينتهي بخطاف صغير، ثبت فيه طعماً من السردين، وعقد طرفي الحبل في مؤخرة الزورق.

ثم أعد حبلا آخر، وزود خطافه بالطعم، وتركه في حنية الزورق.

---

(١) نوع من السمك، يسميه الناس الدرفيل.

وعاد يجدف، ويتابع بعينيه بحركات الطائر ذي الجناحين الطويلين وكان قد هبط حتى اقترب من سطح الماء يلتمس رزقه.

وانقض الطائر مرة أخرى، وهو يضرب بجناحيه، متعقباً السمك الطائر. وشهد العجوز في الماء تلك التلة الخفيفة التي رفعها الدلفين الضخم، وهو والطائر يتعقبان الاسماك الهاربة.

وتأمل العجوز التلة المائية، فأدرك انها ليست من صنع دلفين واحد.

انه سرب من الدلافين يشق الماء تحت مطار السمك الطائر الذي يلتمس النجاة.

وأدرك العجوز أن سرب الدلافين قد انتشر في الماء، فتضاءل أمل السمك الطائر في الافلات منه، وانقطع معه أمل الطائر المحلق، فالسمك الطائر كبير... أكبر من طاقة الطائر المحلق، وأسرع منه.

وظل العجوز يرقب السمك الطائر وهو يندفع مرة، وأخرى، وثالثة، والطائر المغرد يتعقبه على غير طائل.

وحدث العجوز نفسه:

ــ لقد أفلت مني هذا السرب. انه يبتعد كثيرا. وبسرعة بالغة ولكن... لعلي أظفر بسمكة شاردة.. ولعلها تكون كبيرة. لا بد أن تكون سمكتي الضخمة المنشودة في مكان ما... تنتظر قدرها.

ــ ٦ ــ

كان زورق العجوز قد اوغل في البحر، حتى بدت السحب فوق الارض كأنما هي جبال، وبدا الشاطىء كأنما هو شريط طويل مخضوضر تطل من ورائه التلال الشهباء الضاربة الى الزرقة.

أما الماء، فقد ضرب لونه الى الزرقة الحالكة المشوبة بلون الارجوان.

وتملى العجوز الماء، وراح يراقب استقامة حباله فيه، وهبوطها الى أغوار لا تراها العين.

وكان الضوء العجيب الذي ترسله الشمس في الماء، بعد أن ازدادت سموقاً في كبد السماء، بشيراً بجو طيب، يؤكده شكل السحب المترامية على الارض في الافق.

وكان الطائر قد أوشك أن يغيب عن مدى الرؤية، ولم يعد على وجه الماء غير بضع بقع من أعشاب السرخس الصفراء، وحولها مثانات بعض الطيور المغردة، عائمة حول الزورق، تتخللها بعض السميكات الصغيرة تسبح في الماء وترسل فقاعات لطيفة الصورة.

* * *

وكان يروق للعجوز أن يشهد السلاحف البحرية الكبيرة وهي تزدرد هذه السميكات الصغيرة.

وأقبلت السلاحف البحرية، وجعلت تلتهم السميكات وما حولها من العشب، ذلك المشهد الذي يحبه العجوز، كما يحب أن يسير فوق ظهور هذه السلاحف بقدمين حافيتين عندما يكون على الشاطىء.

وكان يؤثر السلاحف الخضراء، وتعجبه أناقتها وسرعتها، في حين يكره الصفراء ذات الرؤوس الضخمة.

ولم يكن صيد السلاحف يستهويه، برغم أنه قضى السنوات الطوال من شبابه يعمل في مراكب صيادي السلاحف.

بيد أنه كان يشعر بالاشفاق عليها جميعاً... حتى السلاحف الضخمة التي يمتد طول الواحدة منها الى طول زورقه، وتزن طنا كاملا.

ان أكثر الناس لا يعطف على هذه السلاحف لأن قلوبها تظل تخفق عدة ساعات بعد ذبحها. ولكن العجوز قال وهو يحدث نفسه:

ـ ان لي قلباً كقلب هذه السلاحف. ولي يدان وقدمان كأيدها وأقدامها.

وكان يأكل بيضها، ويأكل السلاحف نفسها طوال شهر مايو حتى يشتد ساعداه ويقوى على مواجهة الاسماك الضخمة في شهري سبتمبر واكتوبر. كما كان يشرب قدحاً من زيت كبد القرش كل يوم، من القربة القائمة في الكوخ الذي يضع فيه الصيادون معداتهم.

ان هذه القربة هناك دائماً موهوبة لكل من ينشد القوة من الصيادين. ولكن أكثرهم يكره مذق الزيت، في حين أن مذاقه ليس أشد قسوة من مرارة الساعة التي يغادرون فيها مضاجعهم في الصباح الباكر.

هذا، الى أن ذلك الزيت دواء ناجع لمقاومة البرد والحمى، ومفيد للبصر.

* * *

وعاد العجوز يتطلع الى أعلى، فلمح الطائر يحلق مرة أخرى فصاح:

ـ لقد رأى سمكاً.

لم ير العجوز سمكاً طائراً، ولا حتى سمك طعم، هذه المرة.

وجعل يتملى ما حوله في الماء، فلمح سمكة صغيرة من نوع التونة تبرز فوق الماء وتتلفت، ثم تهوي رأسها في الماء مرة أخرى.

كانت تبدو في وهج الشمس كأنها قطعة من فضة.

وما كادت تهبط الى الماء، حتى برزت أخرى وثالثة... وكثيرات من أخواتها، وراحت جميعها تثب في كل ناحية، وتموج الماء، وتقفز وراء سميكات الطعم قفزات طويلة، تحاصرها وتهبط بها.

وقال العجوز لنفسه:

ـ سأفوز بها اذا لم تبادر الى الاختفاء.

وجعل يتابع بعينيه سرب السمك وهو يلمع كمسطح أبيض في الماء، ويتملى الطائر وهو يهبط ويغوص وراء سميكات الطعم التي لاذت بالسطح في ذعر شديد، تلتمس النجاة.

وقال العجوز ان هذا الطائر هو خير عون له على رزقه.

وهنا، تحرك الحبل الذي في مؤخرة الزورق، وجعل يهتز بسمكة التونة العالقة به، وظل الحمل يثقل في يده كلما اجتذب الحبل الى أن برزت به السمكة الكبيرة العالقة، بظهرها الازرق وجوانبها الذهبية فاستلقى على ظهره واجتذبها بكل قوته.

وراحت ترفرف في الزورق بعنف، فضربها على أم رأسها، وراح يلكزها بقدمه.

وصاح العجوز:

ـ انها سقمرية [1]... تصلح لأن اصنع من لحمها طعماً فاخراً... انها تزن نحو عشرة أرطال.

وراح العجوز يتذاكر أيامه الاولى، حينما بدأ حياته كصياد.

كان لا يتحدث إلا نفسه بصوت مرتفع، إلا حينما يكون وحده.

وكان يغني اذا ما خلا الى نفسه.

وكان يلذ له الغناء في الليل، وهو يعمل في مراكب صيد السلاحف.

ثم تعود الحديث الى نفسه بصوت مرتفع، بعد أن تركه الغلام.

على أنه ما كان يتحدث الى الغلام ـ حينما كان الغلام معه ـ إلا إذا كان هناك ما يدعو الى الحديث، وكان حديثهما دائماً بالليل، أو عندما تواجههما العاصفة.

---

(١) نوع من السمك.

ذلك ان الثرثرة ليست من فضائل البحار. وكان العجوز يحترم هذه الفضيلة.

أما الآن، فانه اذ يتحدث الى نفسه، فانما يعرب عن أفكاره بصوت مرتفع، ما دام وحده، وليس هناك من يضيق بثرثرته.

* * *

وقال العجوز لنفسه، بصوت مرتفع:

ـ لو سمعني أحد وأنا أتحدث الى نفسي بصوت مرتفع، لظن أنني مخبول. ولكنني لا أبالي ما دمت أعرف أنني لست مخبولا. ان أثرياء الصيادين يحملون معهم أجهزة راديو في زوارقهم تتحدث اليهم، وتنقل لهم أنباء البيسبول.

ثم عاد يقول:

ـ على أن هذا ليس أوان التفكير في البيسبول، بل في أمر واحد، هو الامر الذي خلقت من أجله. قد تكون هناك سمكة ضخمة حول هذا السرب من السمك. لقد ظهرت سقمرية واحدة من السرب الذي كان هنا يطعم. ولا بد أن تكون صويحباتها قد رحلن بعيداً عن هذا المكان. انها سريعة وموغلة في البعد. كل ما يطفو على سطح الماء في هذه الايام، يذرع الماء بسرعة، ويتجه نحو الشمال الشرقي، ترى... أتكون هذه عادة السمك في مثل هذا الوقت من اليوم؟ أم أنها سمة من سمات الطقس لا أعرفها؟

وكانت خضرة الشاطىء قد غابت عن عينيه، فلم يعد يرى إلا قمم التلال الزرقاء، تبدو بيضاء كأنما توجتها الثلوج، كما تراءت السحب كأنما هي جبال عالية من الثلج فوق القمم.

أما مياه البحر، فكانت تبدو مغرقة في القتامة، والنور ينعكس على الماء على شكل مخروطي.

كان الصيادون يطلقون على السمك التي تشبه أسماك هذا السرب، اسم «التونة». ولا يميزون بينها بأسمائها الصحيحة إلا عندما يصنعون منها الطعم، أو يبيعونها في السوق.

وعلى هذا الاساس، أدرك العجوز ان سرب التونة الذي كان ملماً به، قد هبط الى جوف الماء. وكانت الشمس قد اعتلت كبد السماء، وتكاثرت أشعتها المخروطية، في الماء، واشتدت حرارتها. وأحس العجوز بلسعتها في قفاه، وجعل العرق يتصبب على ظهره اذ هو يضرب بمجدافيه في الماء.

وحدث نفسه:

كيف استطيع أن أدع الزورق ينساب مع التيار وأنام، بعد أن أربط طرف عقدة الحبال حول أصبع قدمي ليوقظني عند الحاجة... ولكن.. هذا يومي الخامس والثمانون.. ولا بد اليوم من صيد حسن.

وفي تلك اللحظة، لمح اذ هو يرقب حباله عصا من عصيه الخضر تنجذب نحو الماء بشدة. فهمهم.

ـ نعم.. نعم..

ووسق مجدافيه دون أن يحرك الزورق، وسار الى الحبل فأحكمه برفق بين ابهام يمناه وسبابتها، فلم يحس أي توتر ولا أي ثقل، فأطلق الحبل في يسر.

ولكن الشيء نفسه ما لبث أن حدث مرة أخرى. وكانت الجذبة في هذه المرة أكثر اغراء، فلا هي عنيفة ولا هي خفيفة، فأدرك ما هنالك تماماً.

كانت هناك، على عمق مائة غور، سمكة تنهش السردينة التي تحيط بالخطاف.

وتحسس العجوز الحبل بيده اليسرى، في رفق ونعومة، وأطلقه من العصا ليجري بين أصابعه دون أن تحس السمكة أي توتر.

وجعل يتكلم:

عند هذا العمق، لا بد أن يكون حلق السمكة ضخماً. كلي أيتها السمكة، كلي الطعام كله، انه طازج. وأنت على عمق ستمائة قدم في الماء البارد الحالك. خذي جولة أخرى في الظلام، ثم عودي لتأكلي من طيبات هذا الطعام.

وأحس جذبة خفيفة.. ثم أخرى أشد منها، معناها أنه ليس من السهل أن يخلص رأس السردينة من الخطاف.

ثم لم يعد يحس شيئاً!

وصاح العجوز:

ـ تعالى.. خذي جولة أخرى. شميها فقط. أليست لذيذة؟ كليها... وستظفرين في داخلها بالتونة. جافة وباردة وشهية. لا تخجلي أيتها السمكة. كليها!

وظل ينتظر، والحبل بين ابهامه وسبابته، وهو يرقبه ويرقب الحبال الاخرى في الوقت ذاته، لعل السمكة تتحول إلى واحد منها. وعادت اللمسة الخفيفة مرة أخرى..

وصاح العجوز:

ـ سنأخذها! اللهم أعنها عليها!

ولكن السمكة لم تأخذها، بل مضت عنها، ولم تعد اصبعا العجوز تحسان شيئاً!

وقال العجوز:

ـ لا أظن أنها مضت الى سبيلها.. الله وحده يعلم.. هذا مستحيل..

انها في جولة وحسب.. لعلها كابدت خطافاً كهذا من قبل، فأخذت عبرة من الماضي ودرساً.

* * *

وعاد يحس اللمسة الخفيفة » الحبل من جديد، فسرت النشوة في بدنه، وقال:

ـ كانت مجرد جولة.. وستأخذها هذه المرة.

وكانت هذه اللمسات الخفيفة تغمر نفس العجوز بالنشوة.

ثم أحس شيئاً ثقيلا.. أثقل مما يتصور.

وأرخى للحبل العنان، فأحس ما يدور هناك. وحدس أن الخطاف قد تعلق بفك السمكة من ناحيته. وها هي ذي تتحرك معه في عمق الماء، وستبتلعه بعد ذلك.

حدس هذا، ولكنه لم يقله، لأنه كان ممن يعتقدون أن الانسان اذا ثرثر عن خير مقبل عليه، فقد لا يقبل الخير أبدا.

ولكنه كان يحس بضخامة السمكة، وكان يتخيلها وهي تتحرك في قتامة الاعماق، والطعم عالق بها من الجانبين.

وفي تلك اللحظة، أحس أن الحركة قد توقفت. أما الثقل، فباق على ما هو عليه.

ثم ازداد الثقل، فأرخى الحبل أكثر مما هو، وشدد ضغط اصبعيه حوله، فأحس بازدياد الثقل، وجعل الحبل يهبط عموديا الى أسفل.

وصاح الرجل:

ـ لقد ابتلعتها: والآن.. سأحملها على أن تأكل أكلة طيبة..

وترك الحبل ينزلق بين اصبعيه قليلا وهو يردد في خاطره:

ـ ازدردي.. ازدرديها جيداً، حتى يدخل طرف الخطاف في قلبك

ويصرعك.. ثم اصعدي بعد هذا في يسر، ودعيني أطعنك بالحربة. حسناً، هل أنت متأهبة الآن؟ هل طال مكثك على مائدة الطعام؟

وصاح:

والآن؟

ثم استجمع كل قوى ذراعيه وجسده، وراح يحاول جذب الحبل بكل ما أبقى له الزمن من عافية..

ولكن شيئاً لم يحدث!

لقد زحفت السمكة بعيداً عنه في هوادة، ولم يستطع العجوز أن يرفعها عن مكانها قيد شعرة.

وكان حبله قوياً، وقد صنع خصيص لمعالجة الاسماك الضخمة.

وراح العجوز يجذبه وهو مستلق على ظهره، يدك قدميه في جنب زورقه.

وبدا الزورق يتحرك نحو الشمال الغربي. وتحركت السمكة في انتظام.. تقطر الزورق. وسارا معاً في المياه الهادئة.

كانت بقية الحبال لا تزال تحمل طعمها في المياه، دون أن تبشر بشيء. وقال العجوز:

ـ ليت الغلام كان معي.. ان سمكة تقطرني.. وأنا المقطور، كان في استطاعتي أن أعجل بجذب الحبل في أول الأمر.. ولكن كان من الجائز عندئذ أن تفلت السمكة من الحبل.. يجب أن أمسك بها قدر ما أستطيع، وأرخي لها العنان طالما لا بد من ارخاء العنان.. اللهم لك الحمد على أن السمكة تسبح ولا تهبط الى أسفل.. ولكن.. ماذا أصنع لو أنها قررت أن تهبط الى أسفل؟ لست أدري.. وماذا يحدث لو أنها سكتت وماتت دون أن أدري؟.. ولكن ينبغي لي أن أفعل شيئاً.. في وسعي أن أفعل أشياء كثيرة.

وشد العجوز الحبل الى ظهره.. ومضت السمكة تقطر الزورق صوب

الشمال الغربي، دون أن يسري الى ظن العجوز أن السمكة مستطيعة أن تقاومه إلى الأ بد.

ولكن أربع ساعات مضت، والسمكة تسبح موغلة في البحر، نبتة الزعانف، تقطر الزورق نحو الشمال الغربي، والعجوز مصر على شد الحبل إلى ظهره.

وقال لنفسه:

ـ لقد علقتها عند الظهر. ولم أرها حتى الساعة!

وكان قد لبس قبعته المصنوعة من الخوص قبل أن يعلق السمكة وقد أوجعت حكة الخوص جبهته.. واشتد به الظمأ، فانزلق على ركبتيه، وظل يزحف وئيداً حتى لا يفلت منه الحبل، ومد احدى ذراعيه لتصل الى موضع قارورة الماء، فشرب قليلا، ثم جلس قبالة حنية الزورق، على مقربة من الشراع المطوي، لا يحاول أن يفكر، بل يدخر كل جهده للمثابرة والصبر.

فقال لنفسه:

ـ هذا لا يهم. فطالما جئت من «هافانا» على أضواء الليل. ولا تزال أمامي ساعتان قبل أن تغرب الشمس. وقد تطلع السمكة قبل الغروب.. فاذا لم تفعل فلعلها تطلع مع القمر.. فاذا لم تفعل فلعلها تطلع مع شروق الشمس. انني لا أشكو أي تقلص. واني لاشعر بأنني قوي، والخطاف في فمها لا في فمي. ولكن.. أية سمكة هذه.. التي تجرني وزورقي على هذه الصورة؟ لا بد أن تكون قد أحكمت حلقها حول الحبل.. كم أتوق الى رؤيتها ولو مرة واحدة، حتى أعرف أي غريم أواجه!

ـ ٨ ـ

وأدرك العجوز من مواقع النجوم في السماء أن السمكة لم تغير من سيرها ولا اتجاهها طول الليل.

وكان البرد قد اشتد بعد غروب الشمس، وقد جف عرق العجوز فتحول الى برد يلذع ظهره وذراعيه وساقيه.

وكان قد نشر الجوال الذي يغطي به علبة الطعم أثناء النهار في الشمس ليجف، فلما غربت الشمس تناوله فلفه حول عنقه، وتدلت بقيته على ظهره، فحشره بين ظهره والحبل الذي يعلق السمكة.

وأحس بشيء من الراحة.

وقال لنفسه:

ـ لن أملك أن أصنع مع هذه السمكة شيئاً، حتى تصنع هي بي ما تشاء.

ووقف عند حافة الزورق فقضى حاجته، وتطلع الى النجوم لعله يدرك الموقع الذي بلغه.

وكان الحبل المتدلي من عنقه إلى الماء يلمع كشريط من الفوسفور في الماء.

وتباطأ زحف الزورق قليلا. وكانت أضواء «هافانا» تبدو خافتة، فأدرك أن التيار لا بد أن يكون متجهاً به صوب الشرق.

وأدرك أيضاً أنه اذا كانت أضواء «هافانا» قد أفلتت منه، فمعنى هذا أنه موغل في اتجاه الشرق.

وعاوده التفكير فيما يمكن أن تسفر عنه نتائج البيسبول اليوم، فتمنى لو كان يملك جهاز راديو ليعرف النتائج.

ثم عاد ليقول لنفسه:

ـ فكر فيما أنت فيه. لا بد من ارتكاب أية حماقة لانقاذ الموقف. ليت الغلام كان معي ليمد لي يد العون، وليرى ما أنا فيه. ان المرء لا يستطيع أن يبقى وحيداً اذا تقدمت به السن.. ولكن.. لا بد مما ليس منه بد.

قال هذا، ثم همهم لنفسه:

ــ يجب أن آكل التونة قبل أن تفسد، حتى أحتفظ بقواي.. لا تنس هذا مهما ضعفت شهيتك أيها العجوز. يجب أن تأكل التونة في الصباح.. تذكر!

* * *

وفي جنح الليل، طاف زوج من الدلافين حول الزورق.

وسمع العجوز صرير دوراتهما وقفزاتهما في الماء، واستطاع أن يميز بين صوت الذكر وتأوه الانثى.

وقال لنفسه:

ــ انهما يلهوان ويتضاحكان ويهمان بالهوى.. انهما من أصدقائنا، كالاسماك الطائرة.

ثم انتابه شعور الرثاء للسمكة العالقة بخطافه، وقال لنفسه:

ــ انها سمكة عجيبة ومذهلة. ترى ما عمرها؟ انني لم أظفر في حياتي بسمكة بهذه القوة، ولا بمثل هذا التصرف. لعلها أنكى من أن تقفز. انها تستطيع أن تصرعني اذا قفزت أو لطمتني لطمة واحدة. بل لعلها وقعت فريسة كثر من خطاف فيما مضى من أمرها، فتعلمت كيف تنازل!... ولكنها لا تعرف انها تواجه رجلا واحداً بمفرده، وانه رجل عجوز.. يا لها من سمكة ضخمة.. ترى كم يكون ثمنها في السوق، اذا كانت ذات لحم طيب؟ لقد ازدردت الطعم كسمكة ذكر.. انها لتجرني جرة الذكر وتحارب غير مذعورة. لست أدري أهي تسير وفق خطة مرسومة، أم أنها تصارع مستحية.. مثلي؟

وتذكر العجوز يوماً علق فيه واحدة من زوج من الاسماك الكبيرة ومن شأن السمكة الذكر أن تحمل الانثى على تذوق السارح في الماء أولا، فاذا علقت الانثى بالخطاف، راحت تحارب بكل قواها مذعورة يائسة حتى تفقد قواها.

أما الذكر، فيبقى الى جانبها، يطوف حولها طوال الصراع، حتى تطفو، فيطفو معها الى سطح الماء، يظل الى جانبها.

وذكر العجوز أن السمكة الذكر كانت يومئذ قريبة من الانثى، الى حد أن العجوز خشي أن يضرب الذكر الحبل بذيله الحاد كسن المنشار، وفي شكل سن المنشار وحجمه أيضاً.

وحينما ظفر العجوز بالسمكة الانثى وضربها على أم رأسها، حال لونها، كمرآة انقلبت على ظهرها، فاجتذبها الى زورقه بمساعدة الغلام الذي كان معه آنذاك، ووقف الذكر الى جانب الزورق.

وبينما العجوز يخلص الخطاف من حلق الانثى، ويعد الحربة، قفز الذكر الى ما فوق الزورق قفزة عالية لعله يرى أين ذهبت أنثاه..

ثم هبط فغاص في الماء.

ذكر العجوز ذلك المشهد في تأثر، وقال:

ــ انه أحزن مشهد عبر بي. وقد تأثر الغلام هو الآخر يومئذ، وجعلنا نسأل الانثى أن تغفر لنا ما صنعنا، وذبحناها على الفور.

* * *

وعاد العجوز يحدث نفسه بصوت مرتفع:

ــ ليت الغلام كان معي الآن.

قالها وهو لا يزال يستشعر قوة السمكة الضخمة، من شدة الحبل المعقود حَول كتفيه، والزورق يجري في الاتجاه الذي اختارته السمكة.

ومضى يحدث نفسه:

ــ ان السمكة، على أثر غدري بها، لم تجد بدأ من الاختيار. ولقد اختارت البقاء في الماء العميق القاتم، بعيداً عن جميع الاحابيل والفخاخ ووسائل الغدر. أما أنا، فقد اخترت أن أسير معها بعيداً عن

جميع البشر. وها نحن الآن، مصير كل منا مرتبط بمصير الآخر منذ الظهيرة. ولا من يعينني أو يعينها!

وهمهم العجوز:

ـ لعله لم يكن خليقاً بين أن أكون صياداً. بيد أن تلك هي المهنة التي ولدت لها... أوه... يجب أن أذكر أن آكل التونة حينما يطلع النور.

ـ ٩ ـ

قبل أن يبزغ ضوء النهار! بدأ شيء يقضم طعم أحد الحبال المتدلية وراء ظهر العجوز.

وسمع صوت العصا تتكسر...

ورأى الحبل يوشك أن ينساب في الماء، فأخرج سكينه من جرابها وقطع الحبل، واحتمل كل ثقل الحبل العالق بالسمكة الضخمة على كتفه اليسرى، ثم قطع الحبل. والحبل القريب منه، وعقد أطراف الحبال المزدوجة بعضها ببعض في الظلام فجعلها حبلا واحداً، وشدها الى لفة الحبال الاحتياطية.

أنجز كل هذه المهمة بمهارة فائقة، مستعيناً بيده وقدمه في عقدها، واطمأن عندما أدرك أن لديه ستة حبال احتياطية.. حبلين في كل طعم.. وحبلين آخرين في الطعم الذي يعلق السمكة الكبيرة، أصبحت كلها حبلا واحداً يتيح له أن يرخي العنان للسمكة كما يشاء.

وقال لنفسه:

ـ عندما يبزغ ضوء الفجر.. سأقطع الحبل الذي ينساب الى خمسة وأربعين غوراً هو الآخر، واصله بالحبال الاحتياطية، وأكون بهذا قد ضمنت أن تمتد حبالي وراء السمكة الضخمة الى مائتي غور.. كل هذا

البتر يمكن تعويضه.. ولكن شيئاً في الوجود لا يعوض هذه السمكة.. لست أدري ما نوع السمكة التي التهمت الطعم الآن.. قد تكون من نوع التونة، أو غيرها.. لم أحس بها أبداً.. ينبغي لي أن أتخلص منها بسرعة.

* * *

وعاد يذكر الغلام، ويقول:

ـ كم كنت أتمنى أن يكون الغلام معي.

ثم استدرك قائلا:

ولكن الغلام ليس معي. انك وحدك أيها العجوز. وليس أمامك إلا أن تعمل الى آخر حبل يبقى معك.. في النور أو في الظلام.. سيان!

قال هذا.. وتكاثر حوله الظلام.. وعجت السمكة في عمق الماء عجة ألقته على وجهه، فارتطم بخشب الزورق. فأصيب بجرح تحت عينه، وسال الدم على خده.. وجرى في شؤونه، ثم لم يلبث أن تجلط وجف قبل أن يصل الى ذقنه.

واعتدل العجوزفي حنية الزورق، واستند الى ألواحه فأحكم لفة الجوال حول عنقه. وأصلح من وضع بقيته المحشوة بين ظهره والحبل، ليحز الحبل في جنب آخر من كتفيه. وهنا أحس عجة أخرى للسمكة، فأدرك أنها لا تزال توغل في الماء، وراح يسائل نفسه:

ـ لماذا عجت السمكة هذه العجة في الماء. لا بد أن يكون الحبل قد أصاب ظهرها العالي. بيد أني لا أحسب أن ظهرها يستشعر ألماً كالذي أحسه في ظهري. ولن تستطيع هذه السمكة أن تجر الزورق إلى الأبد، مهما كبر حجمها..

ثم راح يخاطب السمكة:

ـ والآن تفرغت لك، وانتهيت من كل ما يشغلني، وأصبح لدي

احتياطي كبير من الحبال.. كأقصى ما يتطلع اليه صياد.

ومضى يحدثها بصوت مرتفع:

ـ أيتها السمكة.. سأظل معك حتى أموت!

ثم عاد يحدث نفسه:

ـ وهي الاخرى.. ستظل معي على ما أعتقد.

ـ ١٠ ـ

ومضى العجوز في انتظار نور الفجر. وكانت البرودة قد اشتدت في ذلك الهزيع قبيل انبلاج النور فالتصق العجوز بخشب الزورق يلتمس شيئاً من الدفء، وهو يقول لنفسه:

ـ ان لي صبراً كصبر هذه السمكة.

ومع الخيط الاول من النور، جعل الحبل يترجح في الماء.. والزورق يترجح معه.

وحينما بدت أول انحناءة من قرص الشمس كان الحبل على الكتف اليسرى للعجوز الذي جعل يقول:

ـ ان السمكة تتجه شمالا. أما التيار.. فانه يتجه صوب الشرق. ليت هذه السمكة تسير مع التيار، فانها تكون اذن قد أصابها الاعياء.

وازدادت الشمس سموقاً.

وأدرك العجوز أن السمكة لم تتعب بعد.

على أنه كان هناك بصيص ضئيل من الامل.. ذلك أن انحراف الحبل في الماء كان يشير الى أن السمكة أخذت تسبح في مستوى أعلى مما كانت تسبح فيه. ومهما يكن من أمر فان هذا لا يقطع بأنها تزمع أن تقفز الى السطح.. ولكن.. يجوز!

وقال العجوز:

ــ ليعنها الله على القفز.. ان عندي من الحبال ما يكفل الصمود لها.

ثم حدث نفسه:

ــ لعلي اذا شددت عليها النكير، أحست بالالم فقفزت الى السطح. وقد طلع ضوء النهار، وقد يغريها بالقفز لتملأ خياشيمها بالهواء، ثم لا تقوى بعدئذ على الغوص، فتموت.

واستجمع قواه ليشدد عليها النكير، ولكن الحبل انجذب من بين يديه حتى بلغ غاية التوتر.

ومال العجوز ظهرياً، وعاود جذب الحبل حتى لم يعد يحتمل أي مزيد، ثم أدرك أنه ليس من الحكمة أن يعبث الخطاف بحلق السمكة، لأن كل هزة توسع الفجوة في حلقها، وقد ينتهي الامر بأن يفلت منه الخطاف.

قال العجوز:

ــ مهما يكن من أمر، فاني أحس الآن أنني أحسن مما كنت، بعد أن أشرقت الشمس.. على أنه لا ينبغي لي أن أحدق في وهجها.

وكان بعض الاعشاب الصفراء قد تعلق بالحبل، وأدرك العجوز أن هذه الاعشاب لن تزيد الحبل إلا اغراء باخفاء معالمه، فانشرح صدره لهذا الخاطر.

انه عشب الخليج الاصفر، الذي ينشر على وجه الماء اشعاعات فوسفورية في الظلام.

وراح العجوز يحدث السمكة:

ــ أيتها السمكة، اني أحبك وأحترمك كثيراً، ولكني سأصرعك حتى الموت قبل أن ينتهي هذا اليوم.

وقال في حديثه:

ـ لنتعلق بهذا الامل..

وأقبل طائر صغير من الطيور المغردة، قادماً من الشمال، وحلق على مقربة من سطح الماء، فأدرك العجوز أن الطائر قد بلغ آية العناء.

واستراح الطائر على صدر الزورق، مستقراً عليه، ثم لم يلبث أن طار مطوفاً حول رأس العجوز. ثم راق له أن يقف على الحبل.

وسأله العجوز:

ـ ما عمرك؟.. أو هذه رحلتك الاولى؟

وظل الطائر يتطلع إليه اذ هو يتكلم، ثم راح يقبض بقدميه الرقيقتين على الحبل، فقال له العجوز:

ـ انه ثابت كل الثبات. وما كان لك أيها العزيز أن تتجشم كل هذا العناء في ليلة كهذه، بلا ريح.. ولكن حدثني.. لماذا تأتي الطيور الى هنا؟

وحدث العجوز نفسه:

ـ ان الصقور تفد الى البحر لتلتقي بمثل هذا الطائر.

ولكنه لم يقل هذا الطائر، لأن الطائر لا يفهم لغته، ولا بد أن يعرف قصة الصقور يوماً ما.

ثم قال للطائر:

ـ خذ نصيبك من الراحة أيها الطائر الصغير. ثم اذهب الى موعدك مع القدر، كأي انسان، أو أي طائر، أو أية سمكة.

وراق للعجوز أن يثرثر، لأن ظهره كان قد تظلب واشتد به الالم اثناء الليل.

وعاد يقول للطائر:

ـ اغرب عن مأواي اذا شئت. ويؤسفني أنني لا أستطيع نشر الشراع لآخذك فيه مع هذه النسمة الخفيفة التي بدأت تهفو. على أني أحس الآن أن معي صديقاً.

وهنا اهتزت السمكة هزة مفاجئة ألقت العجوز في حنية الزورق، وكانت زعيمة بأن تقذف به خارج الزورق، لولا أنه تماسك وأرخى لها بعض العنان.

وطار الطائر بمجرد اهتزاز الحبل دون أن يراه العجوز الذي تحسس الحبل بيمناه في حذر، فاستكشف أن يده تدمي، فقال بصوت مرتفع:

ـ لا بد أن شيئاً قد آلم السمكة.

وأراد أن يجرب حظه معها مرة أخرى، فعاد يجذب الحبل لعل السمكة تخرج. وعندما أدرك الحبل غاية التوتر، عاد العجوز فأرخى العنان وهو يقول للسمكة:

ـ انك تحسين بالالم الآن.. وأنا أيضاً.

ومضى يتلفت حوله باحثاً عن الطائر الذي استراح إلى صحبته، فلم يجد له أثراً، فراح يناجيه:

ـ انك لم تطل الاقامة. على أن الاقامة هنا كانت أقل قسوة عليك مما أنت ماض إليه.. الى أن تدرك الشاطىء.

ثم رجع العجوز الى نفسه يحدثها:

ـ ولكن... لم تركت السمكة تصيبني بهذا الجرح.. وبهذه المفاجأة؟ كم أنا غبي.. لعلي كنت مشغولا بأمر هذا الطائر الصغير.. والآن.. سأوجه كل همي إلى عملي. وينبغي لي أن آكل التونة حتى لا أفقد قواي.

ولكنه رجع يصيح:

ـ كم كنت أتمنى لو كان الغلام معي.. ولو كان معي أيضاً بعض الملح!

ـ ١١ ـ

وثقل الحبل على كتفه اليسرى، فانحنى بحذر فغسل يده الجريحة في مياه المحيط، وأبقاها في الماء حيناً وهو يلمح الدم يسيل منها... والزورق يتحرك وئيداً في الماء.

ـ لقد تباطأت السمكة في السباحة.

وود العجوز أن يدع يده في الماء الأجاج مدة أطول، لولا أنه أشفق من هزة أخرى للسمكة تلقي به في الماء، فنهض على قدميه في الزوق، وشد قامته، وعرض يده الجريحة للشمس، فأدرك أن لسعة سخونة الحبل هي التي جرحت يده.

ولكن الجرح أصاب مكمن القوة في يده، وهو يعلم أنه في حاجة الى يديه معاً، الى أن ينتهي من رفع هذه السمكة من جوف الماء، وانه لم يبدأ هذه المهمة بعد.

وحين جف الدم على يده، قال:

ـ والآن، آكل السمكة الصغيرة.

وانحنى فتناول سمكة التونة من تحت الصاري، وشد الحبل الى كتفه اليسرى ثانية، وقطع التونة الى ست شرائح. نشرها على لوحات حنية الزورق، ومسح سكينه في سرواله، ثم حمل بقايا سمكة التونة من ذيلها وألقى بها في الماء وهو يقول:

ـ لا أحسب أنني أستطيع أن آكل سمكة برمتها.

وأعمل سكينه في احدى الشرائح وهو لا يزال يحس انجذاب الحبل في الماء.

واستشعر تقلصاً في يده اليسرى، فقد ثقلت عليها وطأة الحبل، فقال يحدثها:

ـ أية يد أنت... تقلصي ما شئت، فهذا لن يعفيك من العمل.

ونظر الى الماء القاتم يرقب الحبل، ثم قال محدثاً نفسه:

ـ كل... يشتد ساعدك، وتقو يدك. على أن الذنب ليس ذنب يدك. بل انك انت الذي قضيت ساعات طويلة مع هذه السمكة، ولكنك لن تستطيع أن تظل معها الى الابد. كل التونة الآن.

ومد يده الى قطعة منها فألقى بها في فمه، وجعل يلوكها ببطء، فوجدها طيبة المذاق.

وهمس لنفسه:

ـ امضغها جيداً، وابتلع كل عصيرها، ما كان أطيبها لو كان عليها بعض الملح، وقليل من الليمون.

ونظر الى يده المتقلصة وجعل يسألها:

ـ كيف حالك الآن يا سيدي، سأستزيد من الأكل.. من أجلك.

وتناول القطعة الباقية من الشريحة التي كان قد قدها شطرين، ومضغها بعناية، ثم بصق ما كان حولها من الجلد.

وتطلع الى يده مرة أخرى وسألها:

ـ بم تحسين الآن؟.. أم أن موعد السؤال لم يحن بعد.

وتناول شريحة أخرى كاملة فلاكها في فمه، وهو يقول لنفسه:

ـ انها سمكة قوية مليئة بالدم. كان من حسن الطالع أن أظفر بها، انها ليست بدلفين. ان لحم الدلفين مفرط في الحلاوة، أما هذه، فحلاوتها خفيفة جداً، ولا تزال كل قواها كامنة فيها.

وأدرك العجوز أن لا مناص من الواقعية، فليس هناك بديل عنها.

وقال يحدث نفسه:

ـ كنت أتمنى أن يكون معي بعض الملح. ولست أدري هل تفسد الشمس ما بقي من الشرائح أم تجففه. ولهذا لا بد أن آكل بقية الشرائح، برغم أني لست جوعان.. ان سمكتي الضخمة هادئة ومنتظمة السير في الماء.. سآكل هذه الشرائح، ثم أعود الى السمكة..

وعاد يتأمل يده ويقول لها:

ـ أصبري يا يدي. انني أصنع كل هذا من أجلك.

ثم حدث نفسه:

ـ كم كنت أتمنى لو استطعت أن أطعم هذه السمكة. انها اختي. بيد أنه لا مناص من قتلها. ولا بد أن أحتفظ بقواي لهذه المهمة.

وأتى العجوز على الشرائح كلها، ثم شد قامته، ومسح يديه في سرواله، وقال ليده:

والآن.. تستطعين ان تتركي الحبل، وستتولى يمناي مهمة الامساك به حتى يزول عنك هذا العارض السخيف.

وأرسى قدمه اليسرى على طرف الحبل الذي انطلق من يسراه، ودعا الله:

ـ ليشفني الله من هذا التقلص، فاني لا أعرف ماذا تدبر لي هذه السمكة. ولكنها تبدو هادئة ولا تزال تسير وفق خطتها المرسومة. أما أنا... فما خطتي؟ يجب ان تكون أبرع من خطتها، لانها سمكة كبيرة الحجم. فاذا قفزت، فلا بد ان اصرعها. أما إذا استقرت في جوف الماء، فسأهبط معها.. إلى الأبد!

وجعل العجوز يحك أصابع يده المغلقة في سرواله، ويلين اصابعها دون ان تنفرج، فقال:

ـ لعلها تنبسط مع الشمس، أو حينما اهضم لحم سمكة التونة

القوية في معدتي. واذا جد الجد، سأفتح هذه اليد بالقوة، مهما تكن النتيجة. على اني لا أحب ان استخدم القوة معها الآن... والواقع انني أسأت استغلالها كثيراً في الليل، حين اضطررت إلى قطع الحبال المختلفة وشدها بعضها إلى بعض.

وتلفت العجوز إلى البحر حوله، فأحس بالوحدة، ومخروطات الضوء المنعكس في الماء القاتم العميق، وتموجاتها الرتيبة، تزيد من شعوره بالوحشة.

وكانت السحب تتجمع وقتئذ ايذاناً ببدء هبوب الرياح التجارية.

ونظر العجوز أمامه، فرأى سرباً من البط البحري يتأرجح في الجو فوق سطح الماء، ويهبط ويعلو، ثم يهبط ويعلو.

ولم يذكر ان انساناً على الأرض قد أراد لنفسه مثل هذه الوحدة في البحر.

وأدرك لماذا يخشى الناس ان يغيبوا عن مدى الرؤية من الشاطىء... ولا سيما إذا كانوا في زورق صغير كهذا، وفي اوان تكثر فيه مفاجآت الجو، فهذه شهور الزوابع.

واستراح لخاطرآخر... هو انه إذا لم تهب الزوابع في هذا الفصل من العام، فانه يكون دائماً أجمل فصول العام.

على انه عرف ان الزوبعة إذا اقتربت، فان سماتها تبدو في السماء قبل هبوبها بأيام إذا كان المرء في البحر... أما إذا كان على الشاطىء فانه لا يلمح هذه السمات لانه لا يعرف عندئذ إلام يتطلع.

وليس هناك أي نذير بزوبعة قادمة.

وتطلع العجوز إلى السماء، فرأى أكداس السحب تتجمع كأنها تلال لذيذة من المثلجات، يعلوها ريش رفيع يضرب في اجواء سبتمبر العالية.

وقال العجوز:

ــ نسمة خفيفة... الجو أنسب لي منك أيتها السمكة.

وكانت يسراه لا تزال على تقلصها، فحاول ان يفضها بهوادة، وقال لنفسه:

ــ انني أكره التقلصات... انها خيانة يوا جهها المرء من ذات جسمه، ولا سيما حين يكون في مثل هذه الوحدة... لو ان الغلام كان هناك لدلك ذراعي حتى تنفرج قبضتي.. على انها ستنفرج باذن الله.

وأحست يمناه بتغير في درجة انجذاب الحبل، قبل ان يرى بعينيه تبدل انحرافه في الماء.

وانحنى على الحبل، وضرب بيسراه في فخذه بعنف وسرعة.. وهنا رأى الحبل يصعد وئيداً، فصاح بيده:

ــ ان السمكة صاعدة. هيا يا يدي.. أتوسل إليك.. انبسطي.

وأخذ الحبل يصعد قادماً في بطء.. ثم بدا له ماء المحيط ينفرج ليفسح الطريق.. ثم أطلت السمكة!

وجعلت تبرز وتبرز، كأن طولها لا ينتهي، والماء يتدفق عن جانبيها.

كانت تلمح في وهج الشمس، أما رأسها وظهرها، فكانا كالأرجوان القاتم وعلى جانبيها خطوط عريضة كلون «اللاوندة» الخفيفة.

أما رمحها، فكان طويلا كمضرب الكرة، وقد استدق طرفه كالسيف. ورفعت السمكة قامتها في الماء، ثم عادت فغاصت برفق كأنها سباح متمكن.

ولمح العجوز ذيلها الصارم كحد السيف يهبط، والحبل يهبط وراءه.

وقال العجوز:

ــ انها أطول من زورقي.. بقدمين.

وأرخى العنان للحبل وراء السمكة بسرعة وانتظام، دون ان يلحظ أي أثر للذعر على السمكة.

وأفرغ جهده محاولا بكلتا يديه ان يرخي لها العنان إلى أبعد حد، حتى لا تفلت، وقد أدرك انه إذا لم يستطع ان يحد من سرعتها بشيء من الجذب المنتظم، فان مثل هذه السمكة قمينة بأن تقطع الحبل وتمضي به.

وهمس لنفسه:

ـ انها سمكة ضخمة، ويجب ان اقنعها بالعودة. ولا ينبغي لي ان أوقفها على مدى قوتها... وانها تستطيع الفكاك مني. لو كنت مكانها، لظللت أسبح وأسبح إلى ان أفلت من الحبل. ولكن السمك ليس مثلنا والحمد لله... ليس له ذكاؤنا نحن صياديه.

لقد رأى العجوز في حياته كثيرا من الاسماك الكبيرة..
رأى أسماكاً تزن الواحدة منها أكثر من ألف رطل.
وقد امسك باثنتين من هذا النوع في حياته.
ولكنه لم يكن وحده أبدا!

أما الآن، فانه وحده، بعيدا عن مدى الرؤية من الشاطىء.. وأما هذه السمكة، فانها أسرع من أكبر سمكة رآها، وأكبر من كل سمكة سمع بها!

كانت يسراه لا تزال منقبضة، كأنها مخلب نسر. فقال لنفسه:

ـ ولكنها ستنبسط. لا بد انها ستنبسط لتساعد اليمنى، فهناك ثلاثة أشياء كالاشقاء: السمكة ويداي.. يجب ان يزول هذا التقلص. انها لا تستأهل التقلص.

وتباطأ سير السمكة مرة أخرى، وهبطت إلى مكانها الأول.

وتساءل العجوز:

ـ فيم اذن قفزت إلى السطح؟ لعلها قفزت لتخيفني بحجمها. وقد

عرفت الآن.. كم اتمنى ان أريها أنا الآخر أي نوع من الرجال أكون.. ولكنها لو رأتني، لعرفت ان يدي متقلصة. دعها تحسب انني أقوى مما أنا. وسأكون عند حسن ظنها بي.. ليتني كنت أنا السمكة بكل ما فيها، وهي لا تواجه إلا عزيمتي وذكائي.

واستند قليلا إلى خشب الزورق ليستريح ويوطن نفسه على احتمال آلامه.

وظلت السمكة تسبح تحت الماء بانتظام، والزورق يتحرك وراءها وئيداً في الماء القاتم، وقد بدأت الريح تهب من الشرق فتعلو بماء البحر علواً خفيفاً.

وعندما جاءت الظهيرة، كانت يد العجوز قد انفرجت، فقال يناجي السمكة:

ـ انباء سيئة لك يا سمكتي..

وشد الجوال الذي يغطي كتفيه اللتين تشدان الحبل.

كان لا يزال يحس الالم، ولكنه كان هادئاً متماسكاً لا يعترف بالآلام.

وقال لنفسه:

ـ أنا لست متديناً. ولكني أتوسل بجميع الآباء المقدسين، وبجميع العذارى المقدسات، عشرات المرات، ان أظفر بالسمكة. واعد بالحج إلى مقر العذراء لو انني ظفرت بها. انه عهد أقطعه على نفسي.

وبدأ يردد صلواته بطريقة آلية. والعناء يبلغ به في بعض الأحيان إلى حد نسيان أدعيته، فيسارع بترديد نغماتها حتى تعاوده كلماتها من تلقاء ذاتها.

وأنهى صلواته وختمها بقوله: آمين!

ثم أضاف:

ـ أيتها العذراء المقدسة. صلي من أجل مصرع هذه السمكة مهما تكن جبارة!

وأحس بعد ترديد صلواته ودعواته انه أحسن مما كان. ولو ان آلامه كانت لا تزال على حالها. أو أشد قليلا. وانحنى على لوح حنية الزورق. وراح يتحسس الحبل بأصابع يده اليسرى.

وكانت الشمس قائظة. لولا نسمة رقيقة تخفف من حدتها.

وقال لنفسه:

ـ أظن انه يجدر بي الآن ان أعيد الطعم إلى الحبل الصغير الباقي عند الصاري. حتى إذا ما قررت السمكة ان تبيت في الماء ليلة أخرى، وجدت ما أتبلغ به إذا أحسست بالجوع. أما الماء. ففي القارورة منه قليل. لا أظن انني مستطيع ان أظفر في هذا المكان بأكثر من دلفين. ولا بأس به لو أكلته طازجاً. ليت سمكة طائرة تطوق بي الليلة.. ولكني لا أحمل مشعلا أجتذبها بضوئه.. ان السمك الطائر شهي إذا أكل نيئاً، ولا حاجة بي إلى تقطيعه.. ويجب ان أدخر كل قواي الآن. يا الله. لم أكن أتصور ان هذه السمكة ضخمة إلى هذا الحد.. على اني سأقتلها.. برغم عظمتها وروعتها.

ثم عاد يقول لنفسه:

ـ قد لا يكون هذا عدلا.. ولكني سأريها ما يستطيع الرجال ان يفعلوا.. ومدى ما يحتملون. لقد كنت أقول للغلام انني عجوز عجيب.. وقد آن الاوان لاثبات هذا القول.

ولقد أثبت العجوز هذا القول فيما خلا من أيامه ألوف المرات.

ولكن هذه الجولة هي مرة المرات... ان كل جولة هي مرة جديدة... وهو لا يفكر في أية معركة سابقة إذا كان في غمار معركة قائمة.

وقال لنفسه:

ــ ليت هذه السمكة تنام.. حتى أنام أنا الآخر وأحلم بالسباع. لست أدري لم لم يبق في ذاكرتي إلا السباع؟ لست أدري. أيها العجوز.. اتكىء الآن قليلا على الألواح.. ولا تفكر في شيء. ودع السمكة تعمل، أما أنت، فابذل أقل مجهود.

وكان العصر... والزورق لا يزال يتحرك ببطء وانتظام، ونسمة نصف خفيفة تقبل من الشرق.. وحز الحبال في ظهره يؤلم ألماً شديداً.

وبدأ الحبل يرتفع مرة أخرى، وراحت السمكة تسبح على مستوى أعلى مما كانت فيه.. دون سطح الماء.

وكانت الشمس تلفح ذراع العجوز اليسرى وكتفه وظهره، فأدرك ان السمكة تتجه إلى الشمال الشرقي، ولمحها مرة أخرى تحت الماء.

وتساءل أهي مستطيعة ان تراه وهي على هذا العمق الصغير؟

ــ ان عينيها كبيرتان. عيون الخيل أصغر من عينيها.. ومع هذا فان الخيل ترى في الظلام... وأنا الآخر.. كنت أحسن الرؤية فيما مضى. في الظلام... لا في الظلام الدامس. بل كما ترى الهرة.

وكانت حرارة الشمس وتحركات أصابعه المنتظمة على الحبل قد ذهبت بكل تقلص في يسراه. وبدأ يعالج الحبل بالتوتر وهو يشد عضلات ظهره، التي تتألم من الحبل الملفوف حولها.

ثم قال للسمكة:

ــ إذا كنت لم تتعبي حتى الآن، فانك اذن لعجيبة العجائب.

أجل.. لقد نال العناء منه كل منال. وأدرك ان الليل لن يلبث ان يرخي سدوله.. فجعل يفكر في ألف شيء وشيء.

جعل يفكر في نهائيات الدوري. وكان يعلم ان فريق يانكي نيويورك ينازل نمرة ديترويت.

وقال لنفسه:

ـ هذا ثاني يوم لا أقف فيه على النتائج. ولكن يجب ان أكون مليئاً بالثقة بديماجيو العظيم. حتى عندما يشتد النخس على كعب قدمه... ترى هل تؤلمه عظمة الكعب إلى حد كبير؟.. اننا لم نجربها. أتراها تؤلم ألم الديكة عندما تتصارع؟ لا أحسب انني أستطيع احتمال آلام الديكة حينما تتصارع وتفقأ عيونها.. ومع هذا تواصل المعركة.

ما أضأل الانسان إذا قيس بالطيور الجارحة والوحوش الضارية. ومع هذا.. كنت اؤثر ان أكون أنا ذلك الحيوان الرابض في جوف الماء.

ثم علا صوت العجوز وهو يقول:

ـ اللهم الا إذا أقبلت الحيتان.. فان هي أقبلت فليرحم الله هذه السمكة. وليرحمني أنا الآخر.

وسأل نفسه:

ـ هل تعتقد ان ديماجيو العظيم كان يستطيع ان يصبر على هذه المشكلة صبري عليها؟.. أنا واثق انه يستطيع. ولا سيما انه أوفر مني قوة وشبابا.. وقد كان أبوه صيادا.. ولكن ترى أتؤلمه عظمة كعبه؟.. لست أدري.. انني لم أجربها قط.

ـ ١٢ ـ

وغربت الشمس..

ولكي يزود نفسه بمزيد من الثقة. جعل يفكر في حانة الدار البيضاء، حيث تبارى ذات يوم من أيام شبابه مع زنجي في لعبة الذراع الحديدية[١].

---

(١) اللعبة المعروفة باسم «برادي فير».

وكان هذا الزنجي أقوى عمال الرصيف. وقد قضيا نهاراً كاملا وليلة كاملة.. يتباريان على الفوز دون ان يستطيع أحدهما ثني ذراع الآخر على المائدة.

وكان الناس قد تكاثروا حولهما وأسرفوا في المراهنة عليهما، وجعلوا يخرجون ويدخلون.. والمباراة لا تزال قائمة.

أما الحكام فقد جعلوا يتبدلون كل أربع ساعات بعد انقضاء الساعات الثماني الأولى.. إلى ان نام الحكام. ونفرت الدماء من أصابع المتبارين. وراح كل منهما يحملق في عيني الآخر.. وينظر إلى يديه وإلى رسغه.

وظل المتراهنون عليهما يروحون ويغدون، ويدخلون ويخرجون، ويعتلون المقاعد العالية يرقبون المعركة تحت اضواء مصابيح الكيروسين.

كانت جدران الحانة مصنوعة من الخشب المطلي باللون الأزرق اللامع. والمصابيح تلقي ظلالها على المتبارين. وظل خيال الزنجي الضخم يتحرك على الحائط كلما هزت الريح المصابيح.

وتراوحت الفرص بينهما طول الليل. وكان القوم يسقون الزنجي كؤوس الروم[1] ويشعلون له اللفافات وهو رابض في مكانه.

وكان كلما احتسى جرعة من الروم اشتد ساعده وبذل مجهوداً جباراً للغلبة.

وكاد يظفر مرة بالعجوز، الذي لم يكن عجوزاً يومئذ، بل كان اسمه البطل سانتياجو... كاد يظهر مرة به ويثني ذراعه نحو ثلاث درجات.

ولكن سانتياجو تماسك على الفور وقوم ذراعه. واحتفظ بتوازنها وامتلأ ثقة انه سيفوز على الزنجي.

وكان هذا الزنجي رياضياً كبيراً رقيق الحاشية.

---

(١) نوع من الخمر.

وعندما انبلج ضوء النهار وأراد المتراهنون ان يعتبروها مباراة متعادلة، وهز الحكم رأسه في حيرة، استجمع سانتياجو قواه، وشدد نكيره على ذراع الزنجي، وجعل يهبط بها ويهبط، حتى طرحها على المائدة.

بدأت المباراة صباح الأحد وانتهت صباح الاثنين حيث طال الحاح المتراهنين على اعتبارهما متعادلين.. لانهم كانوا يريدون الانصراف إلى أعمالهم على الأرصفة، يحملون أكياس السكر، أو يعملون في شركة هافانا للفحم.

ولولا نداء العمل، لتمنى الجميع ان يبقوا وان تستمر المباراة إلى ان تنتهي.

على ان سانتياجو انهاها قبل ان تدق ساعة العمل وينصرف إليه الناس.

وقد ظل الناس عقب هذا الحادث لا ينادون سانتياجو إلا باسم البطل.

ونقرر بعد هذا ان تقام مباراة ثأرية بين الرجلين في الربيع وكان المتراهنون قلة هذه المرة.. واستطاع سانتياجو ان يتغلب على غريمه بسهولة.. إذ انه أفقد الزنجي ثقته بنفسه منذ المرة الأولى..

وخاض سانتياجو عدة مباريات بعد هاتين. ثم انتهى من كل ذلك حينما أدرك انه يستطيع ان يتغلب على أي منازل، ولكن على حساب ضعاف يمناه، وهي أداة رزقه كصياد.

ثم خاض بعض المباريات بيده اليسرى. ولكنها كثيراً ما غدرت به، ولم تحقق ما عقد عليها من آمال. وهكذا فقد ثقته في يسراه.

عاودته كل هذه الذكريات..

* * *

ثم ذكر ان الشمس قد أدفأت يسراه فلن تتقلص مرة أخرى إلا إذا اشتد البرد في الليل.

وسأل نفسه:

ـ لست أدري ماذا تجيء به هذه الليلة؟

وحلقت فوق رأس العجوز طائرة في طريقها إلى ميامي. ورأى ظلها في الماء يطوي سرباً من الاسماك الطائرة، فقال:

ـ لا بد ان يكون هناك دلفين وراء كل هذه الأسماك الطائرة الكثيرة.

ومال إلى الامام يتأمل الحبل، لعل هناك فرصة سانحة للظفر بالسمكة، على غير طائل.

وظل الزورق يتحرك قدماً في انتظام وبطء والعجوز يرقب الطائرة إلى ان غابت عن عينيه. فجعل يحدث نفسه:

لا بد ان يكون ركوب الطائرة أمراً عجيباً. ترى كيف يكون مشهد البحر من هذا الارتفاع؟ أظن ان راكبيها يستطيعون ان يلمحوا السمك في البحر، لولا انهم يطيرون على هذا ارتفاع الشاهق. كم اتمنى ان أحلق في طائرة على ارتفاع مائتي غور. وأرى السمك من حالق. انني لأذكر حينما كنت أعمل مع سفن صيد السلاحف، انني كنت اصعد إلى ذروة الصاري، وأرى السمك برغم هذا الارتفاع. كان الدلفين يبدو لي عندئذ أكثر خضرة. كنت أرى خطوطه ورقشه الأرجواني. كنت أرى اسرابه كاملة وهي تذرع البحر. ولكن، لماذا تتميز الاسماك السريعة التي تعيش في التيارات القاتمة بهذا الارجوان على ظهورها، مع خطوط ونقاط ارجوانية في أغلب الأحيان؟ ان الدلفين يبدو أخضر لانه ذهبي اللون في الواقع، ولكنه حينما يشتد به الجوع فيطلب الطعام تتجلى خطوطه الارجوانية الممتدة على جانبيه. لعل هذا من اثر الغضب. أو لعل هذه الخطوط تبرز عندما يلوذ بالسرعة.

وقبيل ان يهبط الظلام، مر الزورق بجزيرة واسعة المدى من اعشاب

السرخس كانت تتحرك وتتماوج في المياه كأنما المحيط يهتز فوق شيء ينام تحته في لحظة من لحظات الهوى، وقد غطى ظهره بملاءة صفراء!

وعلق الحبل الصغير بدلفين كان العجوز قد لمحه من قبل، حين قفز في الهواء ولمع كقطعة من الذهب في ضوء آخر شعاعات الشمس المودعة.

وظل الدلفين بعد ان علق بالخطاف يثب ويثب من الخوف كأنه لاعب في سيرك.

وأمسك العجوز بحبل السمكة الضخمة بيمناه وذراعه ـ واجتذب الدلفين بيسراه بمعاونة قدمه اليسرى.

وعندما أصبح الدلفين على مقربة من الصاري، وهو لا يزال يحاول الفكاك على غير أمل.. رفعه العجوز إلى الصاري، والدلفين لا يزال يعض الخطاف في محاولة يائسة للافلات. ثم سقط في جوف الزورق بجسده الطويل المنبسط، ولم يلبث ان هدأت حركته. فخلصه العجوز من الخطاف وأعد قطعة من الطعم داخل سردينه، ووضعها في الخطاف، وألقى بالحبل الصغير في الماء من جديد.

وعاد العجوز إلى مكانه في حنية الزورق بخطا متئدة. وغسل يسراه ومسحها في سرواله. ونقل الحبل الثقيل من يمناه إلى يسراه وهو يرقب الشمس الغاربة إذ هي تهبط في المحيط.

ومضى يتطلع إلى الحبل، ثم قال:

ـ انها لم تغير رأيها بالمرة.

غير انه لاحظ من حركة الحبل في الماء ان السمكة قد تباطأت، فقال:

ـ سأعلق المجدافين معاً حول الصاري. وأشد الحبل إليها، فتقل سرعة السد كة في الليل.

ان الليل هو موعدها مع القدر، ووعدي معه أنا الآخر.

ثم همهم لنفسه:

ــ من الخير ان اؤخر ذبح الدلفين قليلا، حتى لا يتسرب دمه. وسأذبحه وأعلق المجدافين في الصاري، واعلق عليهما الدلفين أيضاً، في وقت واحد. يجمل بي أن أترك السمكة في هدوئها الآن، ولا أزعجها ساعة الغروب انها ساعة عصيبة بالنسبة لجميع أنواع السمك.

وجفف يده في الهواء. ثم امسك بها الحبل، واسترخى الى الامام قدر ما استطاع على ألواح الزورق.

وذكر ان السمكة لم تأكل حتماً منذ ان ازدردت الطعم، انها لسمكة ضخمة، فهي في حاجة إلى مزيد من الزاد.

وقال لنفسه:

ــ لقد أكلت شطراً كبيراً من سمكة التونة. وغدا سآكل الدلفين، وسأسميه «المرجانة» سآكل شطراً منه بعد ان أنظفه، وسيكون أكثر استعصاء من التونة في المضغ، ولكن ما شيء بالسهل.

وصاح بالسمكة:

ــ كيف حالك الآن يا سمكتي. انني بخير، ويدي اليسرى تحسنت وعندي من الزاد ما يكفيني ليلة ويوماً بعدها. اقطري الزورق ما شئت أيتها السمكة.

قال هذا: والحق انه لم يكن يستشعر شيئاً من الراحة. فقد كان الحبل مشدوداً حول ظهره يؤلمه ايلاماً شديداً يكاد يفقده الثقة بنفسه.

ولكن عاد يقول لنفسه:

ــ لطالما عبرت بي أمور أسوأ من هذه. ان الجرح الذي أصاب يمناي تافه، ويسراي قد انبسطت وزالت تقلصاتها، وساقاي بخير. ولقد تفوقت على السمكة في مسألة التموين.

ـ ١٣ ـ

وكان الظلام قد أرخى سدوله.. إذا ان الظلام يهبط سريعاً بعد الغروب في شهر سبتمبر.

ومال العجوز إلى الامام فاستلقى على لوحة حنية الزورق قدر ما ستطاع. وطلعت النجوم الأولى في السماء.

ولمح العجوز بينها نجماً لا يعرف اسمه، وان كان يعرف من أمره ما يشير إلى ان هذه الوحدة تقترب من نهايتها، ولن يلبث ان يجد نفسه بين أصحابه النائمين.

وقال العجوز:

ـ هذه السمكة صاحبتي هي الأخرى. انني لم أر أو أسمع بمثلها في حياتي.. ولكن، لا بد لي من قتلها. من حسن الحظ اننا لا نحاول قتل النجوم.

وجعل يفكر محدثاً نفسه:

ـ تصور.. لو حاول الناس كل يوم ان يقتلوا القمر! ان القمر يستطيع ان يهرب ويلوذ بالنجاة ولكن.. تصور، لو بذل انسان جهد يومه ليقتل الشمس.. من حسن الطالع اننا ولدنا هكذا.

ثم عاوده الرثاء للسمكة التي لم تطعم شيئاً. على ان رثاءه لم يخفف من حدة شوقه إلى قتلها.

وهمهم قائلا:

ـ كم من أفواه الناس سيأكل من لحم هذه السمكة؟ ولكن أهذه الأفواه أهل لأكلها؟.. لا. طبعاً لا.. ان هذه السمكة بعظمتها وبراعة تصرفها لا تجد من هو أهل لأكل لحمها.. انني لا أحسن فهم هذه الأمور. ولكن من حسن الطالع لا ينبغي لنا ان نحاول قتل الشمس

والقمر والنجوم. حسبنا ان نعيش على الماء ونقتل اخوتنا الصادقين في الود.

ثم مضى يقول:

ــ والآن.. يجب ان أفكر في الكلاب[1]. ان له منافعه ومخاطره.. فمن شأنه ان يقصر من طول الحبل المشدود إلى السمكة وقد يكون هذا سببا في أن أفقد السمكة نفسها لو أنها بذلت جهداً للفكاك. وفقد الزورق خفته بثقل المجدافين عليه. ان خفة الزورق تطيل متاعبي ومتاعب السمكة. ولكنها ضمان لسلامتي، إذ ان سرعة السمكة كبيرة وهي لم تستغلها بعد. ومهما يكن من أمر، فان علي أن أذبح الدلفين قبل ان يفسد، وآكل شطراً منه لأحتفظ بقواي.. وسأستريح ساعة أخرى. وأرى أهي لا تزال صامدة منتظمة السير، قبل ان أتراجع إلى الصاري لأقوم بالمهمة وانجز ما قررت.. وفي الوقت ذاته.. أراقب تصرفات السمكة وأرى ان كان هناك أي تبدل في أمرها ان عملية المجدافين حيلة طيبة، ولكن سلامتي أمر يستحق التفكير في الوقت ذاته. وهذه السمكة من الأسماك النادرة التي قلما تصادف المرء، وهي من النوع الذي يحكم اغلاق حلقة بينما الخطاف في ركن منه. ان عذاب الخطاف لا يقاس بعذاب الجوع.

وانها أمام غريم لا تدرك من هو.. وهذا سبق لي عليها.

ثم ناجى نفسه:

ــ استرح الآن أيها العجوز. ودع السمكة تصنع ما تشاء إلى ان يحين حين الخطوة التالية.

واسترخى آونة قدرها بنحو ساعتين، ولم يلمح القمر لانه يرتفع متأخرا في هذا الوقت من الشهر. ولم تكن لدى العجوز وسيلة لتقدير الوقت، ولا كانت استرخاءاته إلا راحة نسبية. وكان لا يزال يحتمل ثقل

---

(١) بضم الكاف وتشديد اللام.

السمكة على كتفيه، ولكنه اعتمد يده اليسرى على حنية الزورق وجعل يفكر:

ـ كم يكون الأمر أكثر يسراً لو استطعت ان أجعل الحبل أسرع مما هو الآن في انسيابه. ولكن السمكة تستطيع عندئذ ان تفلت منه برجفة صغيرة. لا بد لي ان اترك الحبل فوق جسدي، وأكون متأهباً لارخاء العنان بكلتا يدي في أي وقت.

ثم قال لنفسه:

ـ ولكنك لم تنم حتى الآن أيها العجوز. لقد انصرم نصف يوم وليلة كاملة، وهذا يوم آخر.. مرت جميعاً دون ان يغمض لك جفن. عليك ان تلتمس سبيلا إلى النوم إذا سارت الأمور هادئة رتيبة. فانك ان لم تنم فقدت توقد ذهنك.

ومضى يخاطب نفسه:

ـ ان لي ذهناً متوقداً كل التوقد. ان فكري يلمع كالنجوم التي هي أخوتي. على انه ينبغي لي ان أنام. ان النجوم تغفو. والشمس والقمر كذلك. وحتى المحيط، ينام في أيام معينة، حينما تنعدم التيارات فتنبسط صفحته.

وسكت هنيهة ثم مضى يهمهم لنفسه:

ـ تذكر ان تنام. ثم بعد ان تبتكر وسيلة مؤكدة لاداء الحبال لواجباتها. والآن.. عد فجهز الدلفين. انه لمن الخطورة بمكان ان تصنع من المجاديف كلاباً إذا كان لا بد لك ان تنام. انني أستطيع ان أبقى بلا نوم، ولكن هذا خطير أيضاً.

وبدأ يتراجع ثوب الصاري على يديه وركبتيه. وملؤه الحذر ان يزعج السمكة، فلعلها نصف نائمة.. وقال:

ـ ولكني لا أريد لها ان تستريح. أريد لها ان تعمل إلى ان تموت.

واستدار نحو الصاري، بحيث تتحمل يسراه، توتر الحبل الذي حول كتفيه، واستل سكينه من جرابها بيمناه.

وكانت النجوم باهرة الضوء، فرأى الدلفين بوضوح. دفع بسكينه في رأسه فاجتذبه من تحت الصاري، وركز عليه احدى قدميه، وشقه بالسكين من بطنه إلى أسفل فكه. ثم طرح السكين جانباً، وشقه بيمناه ونظفه فتهدل كرش الدلفين في يد العجوز، ففتحه فظفر في داخله بسمكتين من نوع السمك الطائر. وكانتا طازجتين جافتين، فطرح احداهما إلى جانب الأخرى وألقى بأمعاء الدلفين وخياشيمه في الماء، فهبطت بعد ان تركت لمعة فوسفورية خافتة على سطح البحر.

كان الدلفين بارداً. وقد حال لونه إلى بياض أشهب في ضوء النجوم. وسلخه العجوز من جانبيه، من الذيل إلى الرأس. وألقى بالبقايا في البحر.

ونظر إلى الماء، لعل هناك جديداً من أمر السمكة، فلم يشهد إلا هبوط تلك البقايا في الماء.. فاستدار وتناول السمكتين الطائرتين مع شريحتي الدلفين إلى حنية الزورق، وأعاد السكين إلى جرابها.

كان ظهره قد تقوس من اثر الحبل المشدود حوله، وقد احتمل ثقل الحبل بيده اليمنى.

فلما استقر في حنية الزورق، ونشر الشريحتين والسمكتين الطائرتين على لوحة بجانبه، وعدل موضع الحبل حول كتفه، وامسك به بيسراه مال إلى الماء فغسل السمكتين الطائرتين وهو يرقب سرعة الماء إذ يده فيه.

وكان الماء وئيد السرى في يده.

ومسح يده في لوحات الزورق، وقال:

ــ لقد تعبت السمكة. ولعلها الآن تستريح. فلآكل الان من لحم هذا الدلفين، ثم استريح قليلا وأغمض جفني إلى حين.

وأكل نصف شريحة من لحم الدلفين تحت ضوء النجوم. وكان البرد قد اشتد إلى حد ما. ثم أكل سمكة طائرة، بعد ان بتر رأسها وألقى بأمعائها.

وقال لنفسه:

ــ ما أشهى لحم الدلفين لو انه كان مطهواً. وما أقبحه نيئاً. لن اركب الزورق بعد الآن إلا إذا جئت معي بالملح والليمون.

ثم عاد يقول:

ــ لو كنت ذكياً، لألقيت ببعض ماء البحر في حنية الزورق طول النهار حتى إذا جف تحول إلى ملح. بيد اني لم أظفر بالدلفين إلا عند الغروب. ومهما يكن من أمر، فانه سوء استعداد على اني مضغته دون ان أشعر بالغثيان.

ــ ١٤ ــ

وكانت السماء تتلبد بالغيوم شرقاً. وبدأت النجوم التي يعرفها تختفي وراء الغيوم واحدة بعد الأخرى.

وبدا له كأنما هو موغل في سلسلة من جبال الغيوم، وقد هبطت الريح. فقال لنفسه:

يبدو ان الجو لن يسوء، لا اليوم ولا في غد. انه لن يسوء قبل ثلاثة أيام أو أربعة.. استلق الآن لتظفر بشيء من النوم أيها العجوز، فالسمكة هادئة رتيبة السير.

وأحكم الحبل في يده اليمنى. واسندها بفخذه. ولاصق بجسده لوحات حنية الزورق. وعدل من حز الحبل حول ظهره. ووضع يسراه فوقه، وهمس لنفسه:

ــ ان يمناي تستطيع ان تمسك بالحبل طالما هو متوتر. فاذا

استرخى وأنا نائم فان يسراي توقظني عند استرخائه. ان يمناي قاسية على السمكة، ولكن السمكة قد تعودت العقاب. وحسبي أن أغفو ثلث ساعة أو نصف ساعة.

وانكفأ العجوز على الحبل بكل جسده رامياً كل ثقله على يده اليمنى.

وأسلم جفنيه للنعاس.

ولم يحلم بالسباع هذه المرة. بل رأى فيما يرى النائم سرباً من السمك يشبه الدلفين، يمتد نحو ثمانية أميال أو عشرة، وهو في موسم التلقيح. وقد أخذ يعلو في الجو ثم يعود إلى نفس المجرى الذي شقه في المياه أول ما برز.

ثم حلم بأنه في القرية، راقداً على مخدعه، وقد هبت رياح الشمال فأحس بالبرد القارس، وخذلت يمناه، لان رأسه قد توسدها وأطال المكث عليها.

ثم عاوده حلم الشاطىء الأصفر الطويل. ورأى أول السباع مقبلا نحو الشاطىء في الهزيع الأول من الليل. ثم توافدت السباع الأخرى، وقد اسند العجوز ذقنه إلى حافة السفينة التي ألقت مراسيها في الماء بعيداً عن الشاطىء، وراح يتطلع إلى المشهد، ويرتقب مزيداً من السباع، وهو يستشعر سعادة بالغة.

وكان القمر قد ارتفع في السماء منذ حين، ولكن العجوز ظل مستسلماً للنوم، والسمكة تقطر الزورق في رتابة، والزورق يتحرك في نفق من السحب.

وصحا العجوز على رجفة في يمناه التي ارتفعت حتى كادت تلطم وجهه والحبل فيها.

ولم يشعر بيده اليسرى، ولكنه جذب الحبل بكل ما فيه يمينه من قوة، فانفلت الحبل بين قبضتها. فأسرعت يسراه إلى غوث اليمنى

وجعلتا تجتذبان الحبل معاً.

وانحنى العجوز على الحبل الذي ألهب ظهره ويسراه. وكانت اليسرى قد احتملت أكثر العبء وجرى فيها حز مؤلم.

وفي هذه اللحظة، وثبت السمكة وثبت هائلة في المحيط، ثم دبت دبة ثقيلة، ثم جعلت تثب مرة أخرى وثالثة ورابعة.

وانطلق الزورق بسرعة. وكان الحبل شريكاً في هذا السباق. والعجوز يبذل من توتر الحبل مداه مراراً وتكراراً، حتى انكفأ على وجهه في حنية الزورق وانغمس وجهه في الشريحة الباقية من الدلفين.

ولم يعد يستطيع حراكاً.

وقال العجوز:

ـ هذا ما كنا نتوقع.. فلنواجه الأمر الآن.. ولأدعها تدفع ثمن الحبل.. لتدفعن ثمنه!

* * *

لم ير العجوز وثبات السمكة.

ولكنه سمع لطماتها في مياه المحيط، وارتطامها الثقيل وهي تهبط على سطحه. وكانت سرعة الحبل تحز في يديه بقسوة. ولكنه كان يتوقع ان امراً كهذا لا بد ان يحدث.

وحاول جهده ان يبقي مواضع الحز في يديه بعيدة عن الحبل دون ان يدع الحبل يزحف على كفه أو يصيب اصابعه بسوء.

وجعل يقول:

ـ لو كان الغلام هنا.. لبلل لفة الحبل. أجل.. لو كان الغلام هنا!.. ليته كان معي.

وظل الحبل يستطيل ويستطيل مغرباً عنه. ولو ان سرعته قد جعلت تتناقص.

واستمر العجوز يرخي العنان للسمكة قيراطاً بقيراط وهو لا يزال متكفئاً، ثم رفع رأسه عن حنية الزورق بعيداً عن شريحة الدلفين التي انغمس فيها خده. ثم برك على ركبتيه ونهض الهويني على قدميه وهو يجتذب الحبل بمنتهى الضعف.

وبذل جهده ليعود إلى حيث يستطيع ان يتحسس لفة الحبال ويرى ماذا بقي فيها. إذ لم يكن يملك ان يراها في الظلام.

وأدرك ان هناك بقية من الطول في الحبال، وقد آن للسمكة ان تجتذب أكثر هذه البقية.

وقال يحدث نفسه:

ـ نعم. لقد وثبت الآن أكثر من اثنتي عشرة مرة. وامتلأت خياشيمها بالهواء. فلن تستطيع ان تهبط إلى الأعماق لتموت هناك فلا أستطيع ان ارفعها. وستمضي في تحويمها هنا على الفور. وينبغي لي اذن أن أعالجها. ولكني أعجب. ما الذي أثارها فجأة. أهو الجوع قد حملها على بذل محاولة مستميتة، أم ان شيئاً آخر قد أدخل الذعر إلى قلبها في الظلام؟ لعل خوفاً طارئاً دهمها.. ولكنها كانت سمكة هادئة قوية. وكانت تبدو واثقة بنفسها، لا تخشى أي غائل. هذا أمر يستحق العجب.

ثم توجه إلى نفسه ناصحاً:

ـ خير لك ان تتزود بالثقة بذاتك ولا تخف شيئاً أيها العجوز. انك لا تزال ممسكاً بها. وانك لا تملك مزيداً من الحبال، ولكن السمكة لن تلبث ان تحوم حول الزورق.

واعتمد العجوز الحبل بيسراه وكتفيه وانحنى فملأ يمناه بالماء ليغسل وجهه من زفر شريحة الدلفين ثم غسل يمناه أيضاً. وتركها في

الماء الأجاج وهو يتأمل الخيط الأول من الفجر، بشيراً بشروق الشمس، وقال:

ــ ان السمكة تسير غالباً صوب الشرق، وهذا يعني انها قد أصابها العناء واستسلمت للتيار، وستحوم حالا. وعندئذ تبدأ مهمتي.

وأخرج يمناه من الماء بعد ان أحس أنها قد بقيت فيه مدة كافية، وتملاها، ثم قال:

ــ لا بأس. ان احتمال الآلام من شيم الرجال.

وأمسك بالحبل في حذر، بحيث لا يرخي مزيداً من الحبال الاحتياطية، وانحنى ليمد يده اليسرى في الماء على الجانب الآخر من الزورق.

وقال ليسراه:

ــ انك لا تتألمين من أجل شيء لا يستحق كل هذا العناء. ولقد عبرت بي لحظة كنت لا أجدك فيها.

ثم أخذ يفكر:

ــ لماذا لم أولد بيدين متعادلتين في القوة؟ لعله ذنبي أنا.. إذا لم أحسن مران هذه اليد. ولكن.. يعلم الله.. لقد أتيحت لها فرص كثيرة للمران.. على انها لم تتألم الليلة كثيراً ولم تتقلص إلا مرة واحدة، فليقطعها الحبل إذا تقلصت مرة أخرى.

وجال بخاطره ان ذهنه لم يعد صافياً، فخطر له ان يمضغ شريحة الدلفين.

ولكنه عاد يقول لنفسه:

ــ بل لا استطيع. خير لي ان أبقى جائعاً من ان أفقد قواي من أثر الغثيان. واني لأعلم ان الشريحة قد التصقت بوجهي، فاذا لم أكلها فلن استطيع ان احتفظ بها.. على اني سأحتفظ بها لساعة الحاجة

الملحة.. قبل ان تفسد. ومهما يكن من أمر، فقد فات أوان نشداني القوة الآن عن طريق التغذية. كم أنت غبي أيها العجوز.. كل السمكة الطائرة الثانية!

وكانت هناك.. نظيفة مجهزة.

وتناولها العجوز بيسراه، وأكلها ماضغاً عظامها بحذر فأجهز عليها حتى ذيلها!

وقال لنفسه:

ـ ان فيها من الغذاء ما ليس في أية سمكة أخرى.. فيها على الأقل ذلك النوع من التقوية الذي احتاجه. ولقد صنعت كل ما استطيع فلتبدأ السمكة تحويمها، ولتبدأ المعركة.

وجعلت الشمس تصعد للمرة الثالثة منذ ان ركب العجوز زورقه في هذه الرحلة.

وهنا.. جعلت السمكة تحوم. ولم يستطع ان يرى في انحراف الحبل انها تحوم، بل أحس بمجرد تراخ فيه.

وظل الحبل ينجذب في يده مرة أخرى. فلما بلغ حد التوتر عاد يطاوع يده مرة أخرى، فانزلق العجوز بظهره من تحت الحبل، وأخذ يجذبه برفق ورتابة، مستخدماً يديه في حركة متماوجة، مستعيناً بجسده وساقيه، وراحت ساقاه وكتفاه، التي أكلها عليها الدهر وشرب، تتماوج مع حركة الجذب.

وقال العجوز:

ـ انها تحوم الآن.. ولكن في دائرة كبيرة.

ثم لم يعد الحبل ينجذب، فأمسك به إلى ان رأى نقط الماء تقطر منه في ضوء الشمس. ثم عاد الحبل ينجذب بعيداً، فانحنى العجوز وأرخى العنان لينطلق الحبل وئيداً في الماء القاتم.

وقال:

ـ انها تذهب الآن إلى أقصى محيط الدائرة. وعلي ان أحكم الامساك بالحبل بكل قواي، فان توتر الحبل يضيق محيط الدائرة في كل مرة. ولعلي أراها في خلال ساعة. علي الآن ان اقنعها بالامتثال، ثم اصرعها.

ولكن السمكة ظلت تدور وتدور.. ببطء.

وتصبب العرق على وجه العجوز بغزارة..

وأوغلت الآلام في عظامه ساعتين أخريين. على ان الدائرة كانت تضيق وتضيق على مر اللحظات.

وأدرك العجوز من انحناءات الحبل ان السمكة تعلو وتعلو كلما سبحت في الماء.

ـ ١٥ ـ

ومرت ساعة أخرى غامت خلالها بقع سوداء امام عيني العجوز.

وملح العرق عينيه والجرح الذي فوق عينه وفي جبهته.

وعلى انه لم يفرق من مشهد البقع السوداء، فبديهي انها نتيجة توتر اعصابه من شد الحبال.

واحس مرتين انه يكاد يغيب في اغماءة مقترنة بدوخة. مما أقلق خاطره.

وقال يستجمع عزمه:

ـ لا ينبغ لي ان أسقط وأفشل وألقى مصرعي أمام سمكة كهذه، ولا سيما انها تسعى نحوي الآن سعياً جميلا. فليعني الله على الاحتمال. سوف أصلي للسماء مائة مرة.. ولكني لا أملك الآن ترديد صلواتي. فلتكتب لي هذه الصلوات، وسأؤديها فيما بعد.

وهنا أحس رجفة شديدة في الحبل، فأمسك به بكلتا يديه، وكان الحبل حاداً قاسياً ثقيلا.

وقال العجوز:

ــ ان السمكة تضرب الحبل برمحها. كان لا بد ان يحدث هذا... كان ينبغي ان تفعل. وقد يحملها هذا على ان تقفز إلى السطح.. كنت أؤثر ان تبقى دائرة على ان الوثب ضرورة لها.. لتتنفس الهواء. ولكن كل وثبة لها توسع ثغرة الخطاف، وقد تستطيع في النهاية ان تلفظ الخطاف من حلقها.

وصاح بالسمكة:

ــ لا تثبي أيتها السمكة.. لا تثبي!

وأخذت السمكة تضرب الحبل عدة مرات، وكانت كلما هزت رأسها أرخى لها العجوز مزيداً من الحبال.

وقال لنفسه:

ــ يجب ان أخفف من ايلامها.. ان آلامي لا تهم. ففي استطاعتي السيطرة عليها. اما آلامها فقد تدفعها إلى عمل جنوني.

وبعد قليل توقفت السمكة عن ضرب الحبل. وجعلت تدور في بطء في حين أخذ العجوز يجتذب الحبل هونا، ويدخر مزيداً منه بانتظام.

ورفع قليلا من ماء البحر بيسراه فبلل به رأسه ومسح قفاه. وناجى نفسه:

ــ لا تقلص بي من والحمد لله وستصعد السمكة حالا. وانني لأستطيع أن أصمد لها.. يجب ان تصمد أيها العجوز!..

وانحنى في الحنية، ووضع الحبل حول ظهره مرة أخرى وهو يقول:

ــ سأستريح الآن قليلا ريثما تتم السمكة دورتها ثم أقف واعالج امرها عندما تدنو مني.

وكان الاغراء كبيراً في استكانته إلى شيء من الراحة في حنية الزورق، ريثما تتم السمكة دورة كاملة وحدها.

ولكنه حينما ادرك من درجة توتر الحبل ان السمكة قادمة نحو الزورق، نهض على قدميه وظل يحاورها بالحبل ويتماوج حتى كاد الحبل كله يصبح رهن يديه.

وقال لنفسه:

ـ انني أشعر بعناء لم أشهد مثله في حياتي. والان.. ها هي ذي الرياح التجارية تهب. ولكنها ستجرف السمكة معها.. أنا في أشد الحاجة إلى هذا.

وعاد يفكر:

ـ سأستريح خلال الدورة التالية لها وها هي ذي قد بدأت تبتعد. أحس الآن انني أحسن حالا، وسأظفر بها بعد دورتين أو ثلاث.

وكانت قبعته الخوص مسترخية عند أسفل رأسه.

وغطس العجوز في حنية زورقه، وراح يجذب الحبل هوناً عندما أحس بان السمكة تستدير.

وقال يخاطبها:

ـ اعملي أنت الآن. وسآخذك في هذه الدورة.

وارتفع ماء البحر ارتفاعاً ملحوظاً، ولكن الريح كانت وسطا وكان لا بد منها لتعود به إلى الشاطىء.

ـ كل ما علي ان أوجه الدفة صوب الجنوب والغرب.. ان الرجال لا يضيعون في البحر.. والجزيرة طويلة الشطآن.

وفي الدورة الثالثة.. رأى السمكة لأول مرة.

رآها، أول ما رآها كأنما هي ظل قاتم يمر تحت الزورق ويستغرق

مروره لحظات طويلة إلى حد انه لم يصدق ان تكون السمكة طويلة بهذا القدر:

وصاح:

ـ لا. مستحيل ان تكون طويلة إلى هذا الحد!

ولكنها كانت هكذا...

وعند انتهاء هذه الدورة، طفت السمكة على سطح الماء، على مسيرة ثلاثين ياردة من الزورق، ورأى العجوز ذيلها يبرز خارج السطح.

كان ما بدا من ذيلها في الماء أعلى من حد المنجل الكبير، وهو فوق الماء الازرق الداكن في لون الخزامي الباهتة.

وهبط الذيل..

وجعلت السمكة تسبح تحت السطح مباشرة، وقد تجلت الخطوط الارجوانية التي تكسوها.. وكانت زعانف صدرها الضخمة على مدى واسع.

وفي هذه الدورة استطاع العجوز ان يتملى السمكة، وان يرى سمكتين مصاصتين شهباوين تحومان حولها تلتصقان بها طوراً وتنأيان عنها تارة، وتسبحان في ظلها في بعض الآونة مطمئنتين.

كان طول كل من السمكتين المصاصتين أكثر من ثلاثة أقدام. وكانتا إذا أسرعتا في السباحة صدر عنهما فحيح كفحيح الثعابين.

كان العرق يتصبب آنئذ على جبين العجوز، لا من اثر الشمس، بل لان الحبل كان ينقاد له في كل دورة للسمكة، حتى لقد ادرك انه لم تعد لها أكثر من دورتين أو ثلاث، ثم تدنو السمكة منه فيملك ان يمسك بحربته فيطعنها في جسدها.

وقال لنفسه:

ـ ولكن ينبغي لي أولا ان أحملها علي ان تدنو وتدنو وتدنو.. ولا

ينبغي لي ان أصيبها في رأسها، بل في القلب!

وراح يستجمع عزمه قلائلا لنفسه:

ـ كن قوياً وهادئاً أيها العجوز!

وفي الدورة التالية، كان ظهر السمكة إلى الخارج، ولكنها كانت بعيدة عن الزورق إلى حد ما، بيد انها كانت أقرب إلى سطح الماء.

وكان العجوز واثقاً من انه إذا كسب مزيداً من الحبل، زادها قرباً منه.

وكان قد اعد حربته منذ حين.

وكانت لفة الحبال الخفيفة المعلقة بالحربة في السلة المستديرة ونهايتها معقودة في قاع حنية الزورق.

وأقبلت السمكة في دورتها هذه صوب الزورق هادئة بديعة المنظر لا يتحرك منها إلا ذيلها.

وشد العجوز الحبل قدر ما استطاع، ليقربها إليه.

ومرت السمكة بجواره، ثم قومت عودها لتأخذ دورة أخرى!

وقال العجوز:

ـ لقد أصبحت اسيطر عليها.

واستشعر انه يكاد يهوي في الحنية.

ولكنه عاد فاستجمع ما بقي من قواه ليحكم سيطرته على السمكة.

وأحس انه يتحكم في قدرها الآن، وانه قد يستطيع ان يظفر بها هذه المرة.

وقال لنفسه:

ـ اشتدا يا يداي.. واقويا يا ساقاي.. وأفق يا رأسي.. احتمل.. انك لم تفقد صوابك قط.. وسأظفر بها هذه المرة.

وحينما حشد كل عزمه للجولة الأخيرة والسمكة تقترب منه راح يشد الحبل بكل قواه. ولكن السمكة صنعت نفس ما تصنع في كل دورة..

وراحت تسبح بعيداً عنه!

وصاح بها:

ـ أيتها السمكة.. انك مائتة لا محالة.. فلا تقتليني معك!

ثم حدث نفسه:

ـ ان شيئاً لا يمكن ان ينتهي على هذه الصورة.

وكان حلقه قد جف حتى لم يعد يقوى على الكلام. ولكنه لم يكن يستطيع ان يصل إلى قارورة الماء. وقال:

ـ لا بد ان اجتذب السمكة إلي هذه المرة.. انني لم أعد احتمل مزيداً من دوراتها.

وشجع نفسه ببضع كلمات:

ـ ولكنك لا تزال صالحاً للصمود.. إلى الأبد!

وفي الدورة التالية كاد يظفر بها، ولكن السمكة شدت قامتها مرة أخرى، وراحت تسبح هوفا مبتعدة عنه. وقال لها:

ـ انك تقتلينني أيتها السمكة.. طبعاً.. هذا حق لك.. انني لم أر في حياتي سمكة في مثل ضخامتك ولا جمالك ولا هدوئك ولا نبلك.. أيتها الشقيقة.. تعالي.. تعالي واقتليني فانني لم أعد أبالي اينا يصرع الآخر.

ثم ناجى نفسه:

ـ والان.. يبدو ان ذهنك قد اضطرب أيها العجوز. يجب ان يبقى ذهنك صافياً.. روق بالك.. وتعلم كيف يستطيع الرجال ـ وحتى الاسماك ـ احتمال العناء!

وصاح بصوت لا يكاد يصل إلى أذنيه:

ـ اصف يا ذهني.. اصف.

وتكررت المأساة دورتين أخريين.

وهمس العجوز لنفسه:

ـ لست أدري.. انها تحس انه ينبغي لها ان تذهب بعيداً في كل دورة.. ولكني سأجرب مرة أخرى.

وحاول مرة أخرى..

وأصرت السمكة على اعادة الكرة، وسبحت بعيداً وذيلها الضخم يتماوج في الهواء.

وقطع العجوز على نفسه عهداً ان يحاول للمرة الأخيرة، ولو ان يديه كانتا قد بلغتا غاية الاعياء. ولم تعد عيناه تريان الاشياء إلا لماماً.

وأعادت الكرة.. على غير طائل.

وأحس انه يكاد يسقط من الاعياء واليأس، ولكنه أصر على الصمود واستجمع كل آلامه، وكل ما بقي له من قوة، وكل ما أحرز في حياته من اعتزاز واعتداد بالنفس، ووضعه أمام عناء السمكة في هذه الدورة.

واقتربت السمكة، وسبحت إلى جواره حتى كادت تلمس ببطنها حافة الزورق، وبدأت تتجاوزه، طويلة، عميقة، واسعة، فضية، مزركشة بالارجوان.. لا أخت لها في المياه!

وألقى العجوز بالحبل، ورسخ عليه بقدمه، ورفع الحربة عالية قدر ما استطاع، وطعن بكل قواه، واستعار من القدر مزيداً من القوة.

طعن السمكة في جنبها خلف زعانف صدرها الكبير الذي ارتفع في الهواء الى مستوى صدر العجوز. وأحس بحديد الحربة يتوغل في جسدها، فمال عليه، وزاده توغلا، ملقياً بكل ثقة وراء حربته.

ولكن السمكة التي تحمل الموت في جوفها نهضت حية، وارتفعت خارج الماء كأنما تريد ان تظهر للعجوز طولها وعرضها وقدرتها وجمالها!

وأصبحت وكأنها معلقة في الهواء، فوق العجوز وزورقه!

ثم سقطت في الماء سقطة كبيرة غمرت برشاشها العجوز وكل جزء من زورقه.

وأحس العجوز كأنه هو الذي سقط، واشتد به السقم، ولم يعد يرى شيئاً.

ولكنه اطلق الحبال للحربة وجعلها تسترخي رويداً رويداً بين يديه الخشنتين.

وعندئذ استطاع ان يرى السمكة مستلقية على ظهرها، وبطنها الفضي إلى أعلى.

وكان سهم الحربة يعمل عمله في زاوية من كتف السمكة. وقد اصطبغ ماء البحر بالحمرة التي سالت من دماء قلبها.

ـ ١٦ ـ

كان الدم في أول أمره قانياً في الماء الازرق الذي لا يقل عمقه عن ميل كامل، ثم انتشر على وجه الماء كأنه سحابة.

وكان جسد السمكة الفضي ساكناً طافياً مع الموج.

وحملق العجوز بالبقية الباقية من الابصار في عينيه وأمسك ببعض حبال الحربة المشدودة إلى حنية الزورق، ثم اعتمد رأسه بين يديه وقال له:

ـ لا تفقد توقدك أيها الرأس!

وانكفأ على لوحات الحنية وهو يقول:

ـ انني عجوز مجهد. ولكني صرعت هذه السمكة.. التي هي أختي. وعلي الآن ان أقوم بعمل العبيد. علي الان 'أن أعد الخيات والحبال لأشدها معي. ولو كنا اثنين ما استطعنا ان نرفعها ونضعها في هذا الزورق لانه لا يكفيها. علي ان أعد كل شيء لأعود بها إلى البيت.

وجعل يشد السمكة لتقترب بحذاء الزورق، حتى يستطيع ان يمرر حبلا في خياشيمها ويخرجه من حلقها ويشد رأسها على طول حنية الزورق.

وجعل يحدث نفسه:

ـ أريد ان أراها.. وأحسها.. وألمسها. انها ثروتي.

ولكني لا أريد ان احسها من أجل هذا.. أحسب انني احسست بقلبها حينما دفعت فيه بسهم الحربة للمرة الثانية. فلأجذبنها الآن إلى هنا. ولأربطنها واعقد خية حول ذيلها، وأخرى حول وسطها، لأوثقها في الزورق.

وصاح بنفسه:

ـ قم واشتغل أيها العجوز!

واحتسى جرعة ماء، ثم عاد يحدث نفسه:

ـ ان أمامك عملا شاقاً جداً برغم انتهاء المعركة.

وتطلع إلى السماء، ثم إلى سمكته.

ونظر إلى الشمس في حذر، فأدرك ان الوقت لم يتجاوز الظهيرة، والرياح التجارية تهب. وقال:

ـ لم تعد للحبال قيمة. وسنتولى اصلاحها أنا والغلام عندما أعود إلى البيت.

ثم نادى السمكة:

ـ تعالي!

ولكن السمكة لم تأت.. بل غربت عنه في الماء. فذهب هو بزورقه إليها.. حتى أصبحت بين يديه..

وحتى في هذه اللحظة.. لم يصدق انها ضخمة إلى هذا الحد!

ووحد حبال الحربة، ومررها في خياشيم السمكة وحول قلبها، ولفها حول رمحها، ثم ادخلها في خياشيمها الأخرى. ولفها حول بطنها وعقد الحبل المزدوج وشده إلى حنية الزورق.

وقطع لفة الحبال، ثم استدار إلى خلف ليعقد الخيات حول الذيل. واستحال لون السمكة الى فضي خالص، بعد ان كان مزاجاً من الفضة والارجوان.

أما خطوطها فقد بقيت على لونها البنفسجي الباهت، وكذلك الذيل.

كان عرض ذيلها نحو شبرين.

أما عيناها فكانتا كعيني منظار بحري، أو كعيني راهب متبتل.

وقال العجوز:

ـ لم يكن هناك بد من قتلها بهذه الوسيلة. انها الآن تستشعر راحة لم تكن تستشعرها إذ هي في الماء. وقد ادركت المسكينة ألا سبيل الى النجاة.. وكان ذهنها صافياً. انها هي ـ تزن أكثر من ألف وخمسمائة رطل.. وقد تزيد. فلو كان صافيها الثلثين، وسعر الرطل منها ثلاثين سنتاً.. فكم يكون ثمنها؟

وعاد يقول لنفسه:

ـ هذه حسبة تحتاج إلى ورقة وقلم... ان ذهني لم يعد صافياً.. ولست أشك في ان «ديماجيو» العظيم سيفخر بي الليلة..أنا لا أحس نخساً في العظام.. ولكن يدي وظهري يتألمان بقسوة.. لست أدري ما هو

خس العظام.. لعلنا مصابون به دون ان ندري!

وشد العجوز السمكة إلى الحنية والصاري والعارضة الوسطى. كانت كبيرة، وكأنما كان زورق العجوز يقطر زورقاً أكبر منه.

وقطع العجوز جزءاً من الحبل، وشد به فكها الأسفل إلى خشمها حتى لا يبقى مفتوحاً! ولكي يسير الزورق آمناً.

ثم ذهب لينشر الشراع، وبمعاونة العصا ذات المهماز فك الحبال التي حول الشراع فانبسط... وبدأ الزورق يتحرك. واستلقى العجوز على الصاري نصف استلقاءة، وأبحر صوب الجنوب الغربي.

ولم يكن بحاجة إلى بوصلة ترشده إلى الجنوب الغربي.

كان كل ما يحتاج إليه هو الاحساس بالرياح التجارية وانسياب الشراع.

وقال لنفسه:

- يجمل بي الآن ان ألقي بحبل صغير فيه سمكة صغيرة، لعلي أظفر بشيء آكله. أو أسد به رمقي.

ولكنه لم يجد سميكة. وكان السردين قد فسد. فتصيد بعض أعشاب الخليج الصفراء بعصاه ذات المهماز وهو سائر بزورقه. وهزها فسقطت منها الجمبريات الصغيرة المتعلقة بها في قاع الزورق. وكانت أكثر من اثنتي عشرة. وجعلت تتواثب كحبات الرمال.. فقطر العجوز رؤوسها بين ابهامه وسبابته، وراح يلوكها في فمه بأصدافها وذيولها كانت صغيرة حداً. ولكنه كان يدرك انها مغذية، ويحس انها لذيذة.

وكانت قارورة الماء لا تزال بها جرعتان. فشرب نصف جرعة بعد ان التهم الجمبريات الصغيرات.

وكان الزورق يسير سيراً طيباً برغم التيار الخفيف المضاد، وقد وجه

العجوز الدفة نحو الشاطىء واعتمدها بذراعه.

***

وراح يتطلع إلى السمكة..

كان كل ما بقي له من هم ان ينظر إلى يديه ويتحسس ظهره وهو مستند إلى الصاري ليعرف انه في حقيقة لا في حلم.

لقد كان يشعر ـ قبل ان يظفر بالسمكة ـ انه في أسوأ حال. إلى حد انه خيل له انه يحلم.

ولكنه حينما رأى السمكة تخرج من البحر وتثب ساكنة في الهواء قبل ان تسقط سقطتها الأخيرة.. ادرك ان في الدنيا أمورا تستحق العجب إلى حد لا يكاد يصدق.

ثم غام على عينيه، في بعض الآونة شيء فلم يعد يحسن الرؤية.

ـ أما الان فان بصره حديد!

الآن، عرف ان ذلك الشيء الذي غام على عينيه هو السمكة. وان آلام يديه وظهره ليست حلما.

وقال لنفسه:

ـ ان الأيدي تشفى بسرعة. وقد طهرت يدي من الدماء، وسترقأ الجراح سريعا من اثر الملح. ان مياه الخليج القاتمة خير ما تندمل به الجراح. كل ما ينبغي لي هو ان احتفظ بذهني صافيا. ولقد أحسنت يداي أداء رسالتهما.. ونحن الآن نمخر العباب بخير.. وسنمضي.. وفم السمكة مغلق.. وذيلها يهبط ويعلو في استقامة.. كأنما نحن أخ وأخته.

ثم بدأ العجوز يفقد صفاء ذهنه.. وانتابته الهواجس:

ـ من منا الذي يجر الآخر؟ لو انني أنا الذي أقطرها، فليس علي من بأس.. ولو كانت السمكة داخل الزورق، وقد راحت كل هيبتها، فلا بأس أيضاً.. ولكننا نبحر معاً.. لتجرني السمكة إذا راق لها هذا.. انني لا أفضلها إلا بالحيلة، وهي لا تريد بي سوءا.

ـ ١٧ ـ

وطاب سير الزورق في البحر.

وأغرق العجوز يديه في الماء الاجاج، وهو يجهد الاسترداد صفاء ذهنه.

وكانت السحب العمودية تتجمع عالية، فأدرك العجوز ان الريح ستستمر طول الليل.

وكان يتأمل السمكة باستمرار، ليتأكد انه في يقظة لا في منام.

ومرت ساعة قبل ان تلطمه سمكة من أعجب انواع القرش.

لم يكن مجيء القرش مجرد صدفة..

لقد صعد من الاعماق حينما استطالت سحابة الدم القاتم المنساب من السمكة الضخمة وتعمقت في البحر مسافة ميل، فأسرع القرش بالبروز إلى السطح، وبلا حذر ضرب وجه الماء الازرق في أشعة الشمس. ثم هبط القرش مرة أخرى إلى جوف الماء، ففاوحته رائحة الدم، فظل يسبح في مجرى الزورق والسمكة الضخمة.

وكان القرش يفقد مجرى الرائحة في بعض الاحيان، ثم لا يلبث أن يستأنفها ثانية فيسبح في مجرى الزورق.

وكان القرش كبيراً جداً، وسريعاً كأسرع سمكة في الماء، وكان كل ما فيه جميلا عدا فكيه.

كان ظهره أزرق كالسيف، وبطنه فضياً، وجلده ناعماً وأنيقاً.

وكان قوامه سمهرياً فيما عدا فكيه، إذ هما مغلقان مجموعان.

ومضى يسبح في الماء بسرعة تحت السطح مباشرة وزعانفه الظهرية منشورة لا تهتز.

وكانت صفوف اسنانه الثمانية تنحرف وراء شفتيه المزدوجتين المغلقتين في فكيه إلى الداخل.

لم تكن اسنانه هرمية الشكل كأسنان اسماك القرش العادية. بل كانت على شكل أصابع يدي الانسان حينما تنقبض فتصبح كالمخالب.

وكانت في طول أصابع العجوز، وحدها قاطع كالموسى من الجانبين.

انه نوع من القرش يعيش على التهام أي نوع من السمك في البحر.

وهو نوع قوي وسريع ومسلح، ولا ند له في البحر، فلا يقف أمامه عدو.

وقد ازدادت سرعته عندما اقترب من الرائحة اللذيذة، وجعل يشق الماء بزعانفه الظهرية الزرقاء.

وحينما رآه العجوز مقبلا، أدرك انه نوع من القرش لا يرهب شيئاً في الوجود.

وكانت السمكة الضخمة خير رغيبة يحلم بها مثل هذا القرش.

وأعد العجوز حربته، وعقدها في الحبال، واحكم طرف الحبل في قاع حنية الزورق، وجعل يرقب مقدم هذا العدو الخصيم.

وكان الحبل قد قصر بعد ان قطع العجوز منه ما قطع ليربط السمكة.

وكان ذهن العجوز قد صفا بعد ان استراح، فامتلأ عزماً، لولا انه لمن يكن يطمح في مزيد من الآمال.

وقال لنفسه:

ـ ان التعلق بالأمل.. أكثر من هذا الحد.. شيء أجمل من ان يتحقق.

وألقى نظرة سريعة على السمكة وهو يرقب دنو القرش في الوقت ذاته.

وقال يحدث نفسه:

كان ممكناً ان يكون هذا حلماً هو الآخر. ولن استطيع ان أمنع القرش عن لطمي. ولكني قد اظفر به.

وصاح بالقرش:

ــ يا ابا االاسنان[1]... لعن الله من ولدتك.

واقترب القرش من مؤخرة الزورق ولطم السمكة.

ورأى العجوز حلق القرش مفتوحاً، ولمح عينيه العجيبتين واسنانه المسنونة والقرش يهم بأن يطبقها على اللحم القريب من ذيل السمكة.

وكان رأس القرش خارج الماء وظهره يهم بالبروز. وقد سمع العجوز صوت الجلد واللحم في السمكة الكبيرة يتمزق حينما طعن القرش بالحربة في رأسه، في الموضع الذي يتقاطع فيه الخط الممتد بين عينيه والخط الذي يصعد من أنفه.

لم تكن هناك خطوط واقعية. لم يكن هناك غير رأسه الضخم الأزرق وعينيه الكبيرتين وفكيه المصطكين النهمين يتوعدان بابتلاع كل شيء.

ولكن هذا الموضع الذي حدده العجوز على خطوط وهمية، هو موضع المخ.

ولقد أصابه العجوز!

طعنه بيديه اللتين طالما سال منهما الدم ــ وغرس فيه الحربة بكل قواه ــ طعنة مستميتة بعزيمة متفانية وبخبث شديد.

وترجح القرش. ولمح العجوز عينيه تودعان الحياة.

وترجح مرة أخرى. ولف نفسه في الحبال.

---

(١) أبو سنان.. هو اسم هذا النوع من السمك القرش.

وادرك العجوز ان القرش قد مات...

ولكن القرش لم يتقبل الموت بهذه البساطة، واستلقى على ظهره وذيله يتلاعب، وفكاه يصطكان. ووثب فوق الماء كأنه قارب من قوارب السباق.

وكان الماء يبدو أبيض اللون، وذيل القرش يضرب فيه، وثلاثة أرباع جسمه ظاهرة فوق السطح، حينما توتر حبل الحربة ثم ارتعش ثم انقطع.

وطفا القرش قليلا على سطح الماء في هدوء، والعجوز يتطلع إليه ثم بدأ يهبط رويداً رويداً.

وصاح العجوز:

ـ لقد أفلتت مني أربعون رطلا من اللحم.. وأخذ معه حربتي وحبالي.. وها هي ذي سمكتي لا تزال تدمي.. وسيجتذب دمها مزيداً من القروش!

ولم يرق له ان يتطلع إلى السمكة بعد ان خدش القرش لحمها.. كانت القضمة من لحمها كأنما هي قضمة من لحمه.

وقال العجوز:

ـ لقد قتلت القرش الذي عض سمكتي.. انه أكبر قرش من نوع أبي الاسنان رأيته في حياتي.. ويعلم الله انني طالما رأيت قروشاً كبيرة من هذا النوع.

ثم راح يهمهم:

ـ لقد كان الأمل الذي تحقق أجمل من ان يطول. كم كنت أتمنى لو ان ذلك كله كان حلماً.. ولو انني لم اظفر بالسمكة، ولو انني وحدي في مخدعي اتوسد الجرائد!

ثم عاد العجوز يشد عزم نفسه قائلا:

ـ ولكن الرجال لم يخلقوا للهزيمة. وقد يتحطم الرجل دون ان ينهزم. ومع هذا فاني أشعر بالأسى لانني قتلت السمكة. والآن بدأ وقت المتاعب، وليست معي حربة، ان «أبا الاسنان» قوي وقادر وذكي.. ولكني كنت أذكى منه.

واستدرك يقول:

ـ لعلي لم أكن أذكى منه.. بل كنت مسلحاً أكثر منه..

وصاح يخاطب نفسه:

ـ لا تفكر أيها العجوز. امض في طريقك.. وليكن ما يكون.

ثم اردف يقول:

ـ ولكن.. ينبغي لي ان أفكر، لان التفكير هو كل ما بقي لي من قوة.. التفكير.. والبيسبول.. ترى ماذا يكون شعور «ديماجيو» العظيم لو انه رآني وأنا أصيب القرش في مخه؟.. هه.. لم يكن عملا رائعاً.. أي رجل في الدنيا يستطيع ان يفعل هذا.. ولكن.. هي يمكن ليدي ان تعوقاني عن العمل كما يعوق نخس العظام قدمي لاعب البيسبول؟ لست أدري.. لم أصب في كعبي أبداً.. اللهم الا تلك المرة.. عندما مست كعبي سمكة من نوع «السفن»[1]. كنت قد دست فوقها اثناء السباحة، فأحسست كأن شللا أصاب الجزء الأسفل من ساقي. واحتملت يومئذ من الآلام ما لا يحتمل.

ثم شد العجوز من عزمه، وصاح:

ـ فكر في شيء يبعث في نفسك المرح أيها العجوز. ان كل دقيقة تمضي تقربك من بيتك ولا يحزنك فقدانك هذا القرش، أبا الاسنان،

---

(١) نوع من السمك الشوكي.

الذي يزن أربعين رطلا. فقد كان الظفر قمنياً به بألا يجعل ابحارك خفيفاً.

وكان العجوز يدرك كل ما يحتمل ان يحدث عندما يخوض المنطقة الداخلية للتيار، على انه لا حيلة له فيه.

وقال بصوت مرتفع:

ــ أستطيع ان اربط سكيني بقيد المجداف، استعداداً للمفاجآت.

وقطع القيد الذي يربط المجداف بالزورق، وقال:

صحيح انني الآن عجوز، ولكنني لست مجرداً من السلاح.

وكان النسيم منعشاً والابحار طيباً.

وراح العجوز يرمق بعينيه الجزء الأمامي وحده من سمكته، فعاوده بعض الأمل.

وجعل يفكر:

ــ انها لحماقة ان يستولي اليأس على المرء. كما ان اليأس خطيئة فيما اعتقد. ولكنك لن تفكر في الخطيئة.. هذا إلى انني لا أفهم معنى الخطيئة.. لا أفهمها.. لست واثقاً انني اؤمن بها.. قد يكون من الخطيئة ان يقتل الانسان سمكة.. واظن انهم يعدونها خطيئة.. حتى ولو كانت غاية صيدي لها ان أسد رمقي وأرماق الناس.. وبرغم هذا فانهم يعدون كل شيء خطيئة.. لن أفكر في الخطيئة.. فلات ساعة مندم.. ان هناك قوماً في الحياة يعيشون في التفكير في أمر الخطيئة.. فليفكروا هم فيها.. لقد ولدت أيها العجوز صياداً.. وقد كان «سان بدرو».. أبو «ديماجيو» العظيم.. صياداً هو الآخر.

وطاب له ان يفكر في كل ما يحيط به، ما دام لا يجد صحيفة يقرؤها، وليس لديه راديو..

وأوغل في التفكير..

وعاد يفكر في الخطيئة..

وهمهم وهو يفكر، محدثاً نفسه:

ـ انك لم تقتل السمكة لمجرد ان تعيش.. ولتبيعها للطامعين لقد قتلتها بدافع الزهو أيضاً.. لانك صياد.. لقد عشقتها وهي على قيد الحياة.. وعشقتها بعد ان فارقت الحياة.. لو كنت تحبها حقاً.. فقتلك اياها ليس خطيئة.. أم تري ان هذا العمل انما هو شيء أكبر من الخطيئة؟

وصاح مستدركاً:

ـ انك تفكر أكثر مما يجوز لك أيها العجوز.. ولكنك استمتعت بقتل «ابي الاسنان». انه يعيش على السمك الذي هو قوام حياتي أنا الآخر. ان أبا الاسنان ليس جامع قمامة يقتات على البقايا.. وهو نهم كغيره من أنواع القرش.. انه جميل ونبيل.. ولا يعرف معنى للرهبة من أي شيء.

ثم جعل يحدث نفسه بصوت مرتفع:

ـ لقد قتلته دفاعاً عن النفس. وقد أحسنت قتله. وفوق هذا، فليس في الدنيا إلا قاتل ومقتول.. ان الصيد يقتلني، كما انه مصدر حياتي.. ولكن الغلام يحرص على حياتي أيضاً.. لا يجوز ان أخدع نفسي أكثر مما يجب.

وانحنى على السمكة، فتناول قطعة من لحمها، من الموضع الذي نهشه «أبو الاسنان»، ومضغها مختبراً نوعها، متذوقاً طعمها.

وكانت متماسكة، ذات عصير عذب كأنه لحم الماشية.. ولم تكن حمراء ولا مقتلة، فأدرك انها ستأتي بخير ثمن في السوق.

بيدا انه أشفق على لحمها ان يفسد إذا طال مكثها في الماء ولا سيما ان الجو مقبل على سوء.

ـ ١٨ ـ

واستمرت الريح رتيبة، واتجهت قليلا صوب الشمال الشرقي، مما يعني انها لن تتوقف.

وتطلع العجوز أمامه، فلم يلمح أي شراع، ولا رأى هيكلا ولا دخاناً لاية باخرة.

لم يكن حوله إلا السمك الطائر يثب فوق حنية زورقه ـ من ناحية إلى ناحية ـ واعشاب الخليج الصفراء، وقد خلا الجو حتى من الطير.

وأبحر بزورقه ساعتين أخريين، مستنداً إلى الصاري، وهو يلوك بين الحين والحين قطعة من لحم سمكته، لعلها تجدد قواه.

ثم لمح أولى سمكتي قرش مقبلتين نحوه، فصاح:

ـ آه...

ولم تكن هناك ترجمة أخرى لمعنى هذه الآهة، إلا انها كصرخة المرء إذا شرع يدق مسماراً في لوح من الخشب فدقه في يده.

وصرخ العجوز:

ـ انها من الجالانوس.

ثم لمح زعانف السمكة الثانية مقبلة وراء الأولى، وتأكد انها من ذلك النوع من القرش، محدودب الأنف ذي الزعانف السمر، مثلثة الشكل.

واستافت السمكتان رائحة دماء السمكة الضخمة فاهتاجتهما. وفي غفلة جوعهما القاتل، جعلتا تقتربان شيئاً فشيئاً.

ونهض العجوز، فعقد السكين في طرف المجداف برفق، والألم مشتد على يديه، ووقف يرقب دنو سمكتي القرش.

وكان يراهما برأسيهما العريضين المفلطحين المدودين.. ثم بدت له زعانفهما العريضة ذات الاطراف البيضاء.

كان منظرهما قبيحاً، وكانتا كريهتي الرائحة، إذ هما من النوع الذي يصرع السمك من أي نوع، ويقتات بالرمم، فاذا اشتد به الجوع نهش أي شيء، حتى مجداف الزورق أو دفته.

وهذا النوع من اسماك القرش، هو الذي يقتضم أرجل السلاحف البحرية ويهرب، عندما تكون السلاحف نائمة على سطح الماء.

وهو كذلك الذي إذا جاع نهش الأناسي وهم يسبحون في البحر، مع ان الأناسي ليست لها رائحة الدم ولا لزج الاسماك.

ومرة أخرى.. صاح العجوز:

ــ آه...

وأقبل القرشان..

ولكنهما لم يجيئا كما جاء «أبو الاسنان» من قبلهما، بل اقبل احدهما ثم اختفى عن نظر العجوز تحت الزورق.

وأحس العجوز ان الزورق يهتز والقرش يتحرك من تحته وينهش السمكة.

أما القرش الآخر، فقد راح يرقب العجوز بعينين صفراوين، ثم أسرع نحو الجزء المنهوض من السمكة بفكيه ــ وكان هناك خط واضح بين قمة رأسه الأسمر وعموده الشوكي، حيث تبين العجوز موضع المخ، فطعنه بسكينه المشدودة إلى طرف المجداف.

ثم سحب المجداف..

ثم طعنه طعنة ثانية في عينيه الصفراوين كعيني القطط، فترك القرش السمكة وهبط في الماء وهو يزدرد ما قضم من لحمها بينما هو يلفظ الروح.

وكان الزورق لا يزال يهتز فوق القرش الآخر وهو يعبث بالسمكة. فعبث العجوز بالشراع حتى مال الزورق على جنبه، وخرج القرش

المختفي تحته من مخبئه.

واقترب العجوز منه وطعنه.. ولكن الطعنة أصابت اللحم اما الجلد فكان سميكاً.. وهكذا سلم من الطعنة التي أوجعت يدي العجوز وكتفيه.

وبرز القرش برأسه ثانية، فصوب إليه العجوز طعنة أخرى في وسط رأسه، فسقط أنفه أمامه.

وسحب العجوز السكين، وطعن في الموضع نفسه.. وكان القرش لا يزال مطبقاً فكيه على السمكة، فطعنه العجوز في عينه اليسرى.

وبقي القرش في موضعه!

وصاح العجوز!

ــ هذا غير ممكن!

وعاد فطعنه بين المخ والنخاع، وكان الطعن عندئذ قد أصبح سهل المنال. ولكن العجوز أحس باشتداد الألم على غضروفه، فوضع السكين بين فكي القرش ليفتحها، وثناها، فلما انفرج فكاه، هبط القرش في الماء.

وراح العجوز يلعنه.

ــ اهبط أيها اللعين.. اهبط ميلا في قاع البحر.. اذهب والتمس صاحبك.. أو لعله أمك.

ومسح العجوز حد سكينه، ووضع المجداف، واحكم الشراع، وأعاد الزورق إلى مجراه وهو يقول لنفسه:

ــ لا بد انهما قد ذهبا بربع السمكة.. ومن خير قطع اللحم فيها.. ألا ليتني كنت في حلم.. وليتني ما ظفرت بهذه السمكة.. انني آسف أيتها السمكة.. لقد ساء كل شيء.

ولم يعد به شوق إلى ان يتطلع إليها وهي غارقة في دمها.

وقال لنفسه:

ـ ما كان يجوز لي ان اوغل في البحر كل هذه المسافة.. لا من أجلي.. ولا من أجلك أيتها السمكة.. أنا آسف.

واستطرد في نجواه:

ـ والآن.. تأمل أيها العجوز القيد الذي يربط السكين بالمجداف، هل تقطعت أوصاله أم لا.. ثم اصلح من أمر يدك، فلا يزال أمامنا مزيد من الصراع.. ألا ليت معي حجراً لأسن عليه السكين.

قال هذا وجعل يعقد العقدة التي تربط السكين بالمجداف.. وردد مرة أخرى:

ألا ليتني جئت معي بحجر!

ثم عاد يقول لنفسه:

ـ كان عليك ان تجيء معك بأشياء كثيرة. ولكنك لم تفعل.. أيها العجوز. على ان هذا ليس أوان التفكير فيما نسيت ان تجيء به. فكر الآن فيما تستطيع ان تفعل بما لديك.

وناجى نفسه في سخرية:

ـ لقد كثرت نصائحك الطيبة، حتى تعبت منها.

وغسل يديه في الماء، وسار الزورق قدماً، والعجوز يتحدث:

ـ يعلم الله كم من لحم السمكة قضم هذا القرش الأخير. على ان الزورق أخف الآن مما كان.

ولم يحاول ان يفكر فيما فقدت السمكة من جزئها السفلي، ولكنه ادرك ان القروش قد مزقت لحم السمكة، بحيث جعل الدم يتدفق منها.. ويصنع شريطاً دموياً طويلا عريضاً في المياه، خليقاً باجتذاب كل أنواع القرش.

وقال العجوز لنفسه:

ـ كانت سمكة قمينة بأن يعيش المرء من ثمنها طول الشتاء.. لا تفكر في هذا.. استرح الآن، وقو يديك لتدافع عما بقي من السمكة.. ان الدم الذي في يدي لا يقاس بالدم النازف من السمكة.. ان يدي لا تدميان كثيراً.. وجراحهما ليست بالغة.. وهذا الدم النازف من يدي اليسرى قد يقيها شر التقليص.

ثم جعل يفكر:

ـ فيم ينبغي لي أن أفكر الآن؟ لا شيء.. لا يجوز لي ان أفكر في أي شيء.. وعلي ان انتظر. ألا ليته كان حلماً، ولكن.. من يدري؟ قد ينتهي الأمر على خير الوجوه.

ـ ١٩ ـ

وجاء قرش آخر..

وكان من نوع محدودب الأنف. كان شكله كالخنزير.. وحنكه كحنك الخنزير.. واسع إلى حد انه يكاد يتسع لرأس انسان.

وتركه العجوز يلطم السمكة، ثم شد السكين إلى المجداف، وطعنه في مخه فتراجع القرش.. وانكسرت السكين!

واتجه العجوز إلى الدفة ولم يعن حتى بأن يشهد القرش وهو يغوص وئيداً في الماء، وقد جعل حجمه يتضاءل في الرؤية كلما غاص، حتى أصبح كأصغر الاشياء.

كان هذا المشهد يروقه دائماً... اما الآن، فانه لم يعد يهتم حتى بالتطلع إليه.

وقال العجوز:

ـ والآن.. لم يبق إلا العصا ذات المهماز.. ولكنها لن تغني.. وعندي

المجداف، والهراوة الصغيرة، وقضيب الدفة[1].

وقال العجوز:

ـ الآن.. غلبتني القروش.. انني أعجز من ان اخدعها بالهراوة، ولكني سأحاول ان اصرعها، طالما ان المجدافين معي.. والهراوة.. والقضيب.

ونقع يديه في الماء ثانية، وكانت الساعة متأخرة بعد الظهر، وهو لا يرى شيئاً حوله إلا الماء والسماء.

وكانت الريح قد زاد هبوبها، فتضاعف أمل العجوز في رؤية البر.

وقال لنفسه:

ـ لقد تعبت أيها العجوز.. ومسك الضر من الداخل.

ولم تطالعه القروش حتى ساعة الغروب، حين لمح العجوز الزعانف السمراء تبدو عبر المجرى الدموي الواسع الذي تصنعه الدماء النازفة من السمكة في الماء.

ولم تكن القروش تتبع الرائحة هذه المرة، بل كانت تضرب الماء نحو الزورق رأساً، وأفراد سربها متجاورة.

وأمسك بقضيب الدفة، ثم تناول الهراوة. وكانت هذه الهراوة قطعة مكسورة من يد مجداف، طولها نحو قدمين ونصف القدم. ولم يملك ان يستخدمها الا بيد واحدة، لان قبضتها صغيرة.

وأطبق يمناه عليها بقوة، وراح يرقب قدوم سرب القروش.

وكان السرب من نفس نوع القرش الأخير.

وقال:

ـ سأدع القرش الأول يمسك السمكة، ثم اضربه على أنفه، أو على أم رأسه.

---

(١) قطعة من الحديد توضع في الدفة، ويسميها العوام: السكينة.

وجاء قرشان معاً..

وحين رأى العجوز أقربهما إليه يفغر فاه، ويطبقه على جانب من السمكة، رفع الهراوة عالية، وأهوى بها على رأس القرش بكل قواه.

وأحس بأنه يضرب في مطاط.

كما أحس صرامة عظام رأس القرش.. وأعاد الكرة على أم رأسه، فتراجع القرش الأول عن السمكة.

أما القرش الآخر، فقد جعل يحوم حول السمكة، ثم فغر فاه ليقضمها.

ورأى العجوز قطعاً من لحم السمكة الابيض تطل من ركن فكيه، وهما مطبقان عليها، فأهوى على رأسه بالهراوة. فتطلع إليه القرش، ثم انتزع اللحم الذي في فكيه من جسد السمكة. وأهوى عليه العجوز بالهراوة مرة أخرى، والقرش يحاول ان يزدرد قطعة سائبة من لحم السمكة.. ولكن الهراوة لم تصب هذه المرة إلا الجزء المطاطي من رأس القرش..

وقال له العجوز محنقاً:
ـ تعال أيها القرش.. تعال مرة أخرى..

وجاء القرش.. وضربه العجوز والقرش مطبق فكيه على السمكة.. ضربه من عل.. من أعلى ما استطاع ان يرفع يده، وأحس بالهراوة ترتطم بعظام مخه.. وضربه مرة أخرى في الموضع نفسه، بينما القرش ماض في تمزيق لحم السمكة وهو آخذ في التراجع عنها.

وراح العجوز يرقب عودة القرش، ولكنه لم يعد، كما لم يعد أخوه.

ثم رأى قرشاً آخر يحوم سابحاً في الماء، دون ان يرى زعانفه.

وقال العجوز لنفسه:

ـ ما كنت أتوقع ان اقتلهما. كنت استطيع هذا في شبابي. ولكني

آذيتهما كثيراً على كل حال، فلم يعد لاحد منهما حول ولا طول.. ولو كنت املك مضرباً أستطيع ان استخدمه باليدين لتمكنت من قتل أولهما قطعاً.. حتى في هذه السن.

* * *

لم يعد العجوز يطيق ان ينظر إلى السمكة، فقد أدرك ان نصفها قد تمزق.

وكانت الشمس قد غربت وهو في صراعه مع القروش.

وقال لنفسه:

ـ سيهبط الظلام الآن.. وسأرى أضواء «هافانا».. فاذا كنت بعيداً جداً صوب الشرق، فسأرى اضواء بعض الشواطىء الجديدة.

ثم استطرد في حدثه:

ـ لا يمكن ان أكون الآن بعيداً إلى حد كبير. ولا أظن ان أحداً قد شعر بالقلق علي.. الا الغلام طبعاً.. ولكني متأكد انه يثق بمقدرتي.. وقد يقلق بعض عجائز الصيادين.. وغيرهم أيضاً.. انني أقيم في بلدة طيبة.

لم يعد يطيب له ان يتطلع الى السمكة، فقد تمزقت أرباً..

ثم خطر له خاطر.. فجعل يحدث السمكة.. أو ما بقي منها:

ـ يا نصف السمكة.. يا من كنت سمكة.. انني آسف إذ أوغلت في البحر. لقد حطمتك وحطمت نفسي. ولكننا صرعنا قروشاً كثيرة.. أنت وأنا.. ألا قولي، كم سمكة قتلت في حياتك أيتها السمكة العجوز؟

ان هذا الرمح في رأسك لم يخلق عبثاً.

وحلا له ان يتصور السمكة حية، وقد التقت في طريقها بسرب من القروش. ثم تابع حديثه إليها:

ـ كنت أستطيع ان أقطع منقارك لأحارب به القروش. ولكنه ليس ذا حد كحد السكين. على انه لو كان رمح راسخ معي، لشددته إلى المجداف.. أي سلاح.. اننا نحارب القروش معاً، أنا وأنت، ماذا تصنعين الآن لو جاءت القروش في الليل؟ ماذا تملكين ان تفعلي؟.. نحاربها.. نحاربها إلى ان أموت.

* * *

وهبط الظلام..

ولم يطل أي ضوء.. ولو من بعيد..

لم تكن هناك غير الريح، وانسياب الشراع الرتيب.

واحس العجوز كأنما هو مشرف على الموت.

وتحسس كفيه، فاذا هما لم تصلا إلى حد العدم.

وجعل يحاول اخراج الألم منهما، بطيهما ونشرهما، واسند ظهره إلى الصاري.. انه لم يمت بعد.

هكذا قالت له كتفاه!

وقال لنفسه:

ـ انني مدين بكل هذه الصلوات التي وعدت بأدائها إذا ظفرت بالسمكة. ولكني الآن مجهد إلى حد انني لا أملك ترديد الدعاء. خير لي ان أضع الجوال حول كتفي.

ورقد مستنداً إلى الصاري، ويده على الدفة، وجعل يرتقب أي ضوء ينعكس في الماء، وقال:

ـ معي الآن نصف سمكة. وقد يسعدني الحظ فأحتفظ بهذا النصف.. لا بد ان يحالفني الحظ.

ـ لا.. لقد تحديت الحظ أيها العجوز بايغالك في البحر.

ولكنه عاد يصيح:

ـ لا تكن سخيفاً.. وتيقظ.. وامسك بالدفة، فقد تكون هناك بقية باقية من الحظ.. كم أحب ان ابتاع الحظ، ولن كان الحظ يشترى، ولكن.. بم يباع الحظ؟ هل استطيع شراءه بحربة مفقودة وسكين مكسورة ويدين سقيمتين؟

وأجاب على تساؤله بقوله:

ـ ممكن.. لقد حاولت ان تشتريه بأربعة وثمانين يوماً في البحر.. فباعتك هذه الأيام اياه.. لا ينبغي لي ان أفكر تفكيراً عابثاً.. ان الحظ شيء في صور كثيرة.. ومن ذا الذي يستطيع تمييزه؟ سأتقبله لو جاء في أية صورة.. وأدفع فيه أي ثمن.. كم اتمنى ان ألمح ومضات الضوء.. كم اتمنى اشياء كثيرة.. ولكن الاضواء هي كل ما أريد الآن.

واتخذ وضعاً يهيىء له نصيباً أوفر من الراحة على الصاري، وأدرك من آلام يديه انه لا يزال على قيد الحياة.

وبدت له انعكاسات أضواء المدينة في البحر من بعيد، وقدر ان الساعة قد تكون نحو العاشرة من المساء.

طالعته الاضواء في أول الأمر كمجرد احساس.. لانها انعكاسات أضواء غير ضوء القمر، فالقمر لم يطلع بعد.. ثم ظلت ثابتة الرؤية على مياه المحيط، الذي بدأ يهيج مع الريح.

ووجه العجوز الدفة صوب وهج الاضواء، وأدرك انه الآن عند حافة المجرى.. فقال:

ـ الآن أوشكت المتاعب ان تنتهي، وقد تبرز لي القروش مرة أخرى، ولكن... ماذا يملك المرء ان يصنع معها في الظلام، وهو اعزل من السلاح؟

ـ ٢٠ ـ

كان العجوز قد تجمد من برودة الليل، واشتدت آلامه، وتقلبت عليه جراح كل جزء من جسده، فتمنى ألا يخوض مزيداً من المعارك.

ولكنه عندما انتصف الليل، وجد نفسه مضطراً لخوض معركة جديدة.

وأدرك منذ البداية ان المعركة في هذه المرة خاسرة.

كانت القروش الكثيرة، ولم ير منها إلا زعانفها، تنساب في خطوطه طويلة، ووهج اشعاعها الفوسفوري. وألقت القروش جميعها بنفسها على السمكة، فهب العجوز يضربها على رؤوسها بهراوته، وسمع اصطكاك فكوكها، وأحس باهتزاز الزورق فوق القروش التي نزلت تحته.

وظل يضرب مستميتاً حيثما اتفق، وهنا أحس كأن احداً يمسك بالهراوة، وإذا بالهراوة تفلت من يده!

فأخذ قضيب الدفة، وجعل يضرب به، بكلتا يديه، ويهوي به على رؤوس القروش مرات ومرات.. ولكن القروش صعدت إلى قرب حنية الزورق، واحداً وراء الآخر، وتكاثرت بغير عد، وجعلت تمزق لحم السمكة التي أخذت تتوهج تحت الماء. وجاء أحد القروش الى رأس السمكة.. وأدرك العجوز ان الامر قد انتهى، ولكنه أهوى بالقضيب على رأس القرش الذي أطبق فكيه على رأس السمكة ليمزقه. وضرب ضربة أخرى، وثالثة ورابعة. وسمع صوت القضيب يتكسر.. ولا يبقى منه إلا شطر في يده وطعن القرش بهذا الشطر الباقي من القضيب. وأعاد الكرة، فانسحب القرش مهزوماً.

كان هذا آخر قرش بقي بعد المعركة. وقد انقضت بقية القروش، لانه لم يعد على المائدة مزيد من الطعام.. لقد نهشت القروش كل ما في السمكة من لحم.

وكانت أنفاس العجوز تتقطع.. وأحس بطعم غريب في فمه.. طعم نحاسي حلو.

وأشفق منه لحظة. ولكن الطعم ما لبث ان زال، فبصق العجوز في المحيط قائلا:

ــ ابتلعي هذه البصقة أيتها القروش.. واحلمي بانك قتلت انساناً.

وادرك العجوز في النهاية ان الهزيمة النكراء قد حاقت به، وان لا دواء لها.

وعاد إلى الشراع..

وادرك ان القطعة الباقية من القضيب تكفي لحسن قيام الدفة بمهمتها. ولف كتفيه بالجوال، وأبحر زورقه.

أبحر متخففاً.. دون ان يفكر أو يحس أي شعور.

لقد فات أوان كل شيء، وأصبح كل همه ان يصل إلى بيته بأمان.

وفي الليل.. راحت القروش تعبث بأعشاب السرخس، كما يلهو الآكل بفتات المائدة. ولم يهتم العجوز بأمرها، ولم يلق بالا لأي شيء غير توجيه الدفة. كان كل همه ان يبحر متخففا، وان يسير الزورق هوناً، وقال:

ــ ان الزورق بخير.. انه سليم لم يصبه ضر.. فيما عدا القضيب. وهذا ما أستطيع ان أعوضه بسهولة.

ثم أحس انه في قلب التيار، ورأى أضواء المستعمرات الشاطئية على طول الضفة.. وعرف أين هو.. فليس بينه وبين قومه كثير.

وأخذ يفكر..

ــ ان الريح صديقة لنا.. مهما تكن.

ثم قال:

ـ انهـا كذلك.. في بعض الاحيان. أما البحر الكبير، فانه معنا ومع اعدائنا. همهم:

ـ والمخدع.. ان المخدع شيء مستحب.. انه مريح.. حينما يعود المرء مهزوماً، لم أكن أتخيله مريحاً إلى هذا الحد.

ورجع العجوز يسائل نفسه:

ـ ولكن.. من الذي هزمك؟

وأجاب على نفسه بصوت مرتفع:

ـ لا شيء.. أنا الذي ذهبت بعيداً.

ـ ٢١ ـ

وعندما دخل زورقه الميناء الصغير، كانت أضواء الشرفة قد أطفئت، فأدرك ان الجميع قد انقلبوا إلى مخادعهم.

وهبت الريح برتابة، ثم جعلت تشتد.. أما الميناء، فكان هادئاً برغم ذلك. وسلك بزورقه صوب رقعة الحصباء الواقعة تحت الصخور. ولم يكن هناك من يعينه على أمره، فاجتذب الزورق إلى الشاطىء قدر ما استطاع، ونزل منه، وشده إلى بعض الصخور.

وخلع الصاري بعد ان طوى حوله الشراع، وحمله على كتفيه، وسار صعداً. وهنا أدرك عمق عنائه، فتوقف لحظة، ونظر إلى الخلف، فرأى في انعكاس نور الشارع ذيل السمكة منتصباً خلف موضع الصاري. ورأى عمودها الشوكي الأجرد الأبيض، وبقايا الرأس، وهيكل المنقار.. كلها جرداء من اللحم.

وواصل سيره صعداً. وعند الذروة، سقط ورقد على الأرض، والصاري عند كتفه.

وحاول ان ينهض، ولكنه لم يستطع، فجلس هناك والصاري ملتصق بكتفه، وجعل ينظر إلى الطريق.

ثم نهض فواصل مسيره، ولكنه جلس يستريح خمس مرات قبل ان يصل إلى كوخه.

وفي الكوخ، أسند الصاري إلى الجدار، وعثر في الظلام بقارورة ماء فتناول منها جرعة، ثم تمدد على مخدعه، وشد البطانية على كتفيه ثم على ظهره وساقيه، ونام ووجهه إلى أسفل، على الجريدة، وذراعاه ممتدتان في استقامة، وكفاه إلى أعلى.

وكان لا يزال نائماً حينما قدم الغلام فأطل من الباب في الصباح.

وكانت الريح صرصراً، إلى حد ان القوارب لم تخرج للصيد. وقد نام الغلام حتى ساعة متأخرة، ثم جاء إلى كوخ العجوز كما كان يجيء كل صباح خلال أيام غيبته، ليطمئن عليه.

ورأى الغلام ان العجوز لا يزال يتنفس، ثم لمح يديه وحالهما، فأخذ يبكي، وسارع بالخروج ليجيء له ببعض القهوة..

وظل يبكي طول الطريق.

واحتشد كثير من الصيادين حول الزورق، ليروا هذا الشيء المعلق به.. ونزل أحدهم إلى الماء بعد ان ثنى سرواله، يقيس طول الهيكل بقطعة من الخيط.

أما الغلام، فلم يهبط إلى موضع الزورق.. إذ كان قد هبط من قبل.

وكان أحد الصيادين يهتم بأمر الزورق ويحكم شده إلى الصخور.

وصاح هذا الصياد بالغلام:

ــ كيف حاله؟

وصاح الغلام:

ــ انه نائم.

ولم يبال الغلام بأمرهم، إذ هم يرونه في بكائه، وقال لهم:

ــ لا يزعجنه أحد!

وقال الصياد الذي كان يقيس بقايا السمكة!

ــ ان طولها ثمانية عشر قدماً.. من الأنف إلى الذيل.

قال الغلام:

ــ اني أصدق هذا.

وذهب إلى الشرفة فطلب اناء قهوة، فيه كثير من اللبن والسكر وقال له صاحب «الشرفة»:

ــ أي شيء آخر؟

ــ لا.. وسأرى ماذا يأكل فيما بعد.

ــ كم كانت سمكة عجيبة.. ان أحداً لم ير سمكة كهذه أبداً. على ان السمكتين اللتين ظفرت بهما أنت أمس، كانتا بديعتين.

قال الغلام:

ــ لعنة الله على سمكاتي.

وعاد يبكي ثانية.. وسأله صاحب «الشرفة»:

ــ ألا تريد شراباً من أي نوع؟

فأجاب الغلام قائلا:

ــ لا.. وقل لهم لا داعي لازعاج سانتياجو، وسأعود ثانية.

ــ أبلغه كم أنا آسف له.

ــ شكراً.

وحمل الغلام اناء القهوة الساخنة صعداً نحو كوخ العجوز، وجلس بجواره إلى ان استيقظ.. أو إلى ان بدا له انه استيقظ.

ولكن العجوز ما لبث ان استغرقه النوم من جديد.

وخرج الغلام ليستعير بعض الحطب، يدفىء به القهوة عندما يصحو العجوز.

وأخيراً.. استيقظ العجوز، فقال له الغلام:

ـ لا تنهض.. اشرب هذا.

وصب له بعض القهوة في كوبه، تناولها العجوز فاحتساها، ثم قال:

ـ لقد غلبت على أمري يا مانولين.. غلبت تماماً.

فقال الغلام:

ـ انها لم تهزمك.. أعني السمكة.

ـ لا.. بل جاءت الهزيمة فيما بعد.

ـ ان «بدريكو» مهتم بأمر الزورق والمعدات. فقل لي: ماذا تريد ان تصنع برأس السمكة؟

ـ دع «بدريكو» يقطعها ويستخدمها كطعم.

ـ ورمحها؟

ـ احتفظ به أنت.. إذا شئت.

ـ نعم.. اني أريده.. والآن.. لنفكر في بقية الاشياء.

ـ هل بحث عني أحد؟

ـ طبعاً.. خفر السواحل.. والطائرات.

فأجاب العجوز وهو يستشعر لذة وجود أحد يتحدث إليه، بعد ان طالت أحاديثه إلى نفسه في البحر:

ـ ان المحيط واسع جداً. وزورقي صغير بحيث يشق على الطائرة ان تراه. لقد افتقدتك كثيراً يا ولدي.. وأنت.. ماذا خرج لك من الصيد؟

ـ واحدة في اليوم الأول، وأخرى في الثاني، واثنتان في الثالث.

ـ رزق طيب.

ـ والآن.. لن نخرج إلى الصيد إلا معاً.. أنت وأنا.

ـ لا يا ولدي.. انني لست حسن الطالع.. لقد تخلى عني الحظ نهائياً.

ـ دعك من الحظ. سأجلبه أنا لك.

ـ وماذا تقول اسرتك؟

ـ لن أبالي.. لقد ظفرت بسمكتين أمس.. ولكننا سنخرج للصيد معاً من الآن، لانني لا أزال أتمنى أن أتعلم منك أشياء كثيرة.

ـ نحن في حاجة إلى رمح قوي لنصرع به الاسماك، نحمله معنا دائماً في الزورق. ونستطيع ان نصنع حده من رقيقة قوية من سيارة «فورد» قديمة. ونستطيع كذلك ان نخرطه في «جوانا باكوا».. يجب ان يكون حاداً، ولا ينقضم.. لقد انكسرت سكيني..

ـ سأجيئك بسكين أخرى.. وسأخرط الرمح.. ترى كم يوماً تستمر هذه الريح الصرصر؟

ـ قد تستمر ثلاثة أيام.. أو أكثر.

فقال الغلام:

ـ سأعد كل شيء. وعليك ان تهتم بأمر يديك أيها العجوز.

ـ اني أعرف كيف اعالجها. لقد بصقت في الليل شيئاً غريباً.

ـ وهل عانيت؟

ـ فقال العجوز:

ـ كثيراً!

ـ سأجيئك بالطعام والصحف. استرح راحة تامة أيها العجوز.

وسأجيئك بدواء ليديك من الصيدلية.

ـ ولا تنس ان تبلغ «بدريكو» ان رأس السمكة له.

ـ لن يفوتني هذا.

ـ ٢٢ ـ

وحينما خرج الغلام، وهبط الطريق المرجاني الخشن، عاوده البكاء.

وبعد الظهيرة، كان هناك رهط من السائحين في «الشرفة» وكانت في الرهط امرأة تتطلع إلى السماء، فرأت بين أكوام علب البيرة الخاوية والمخلفات المتراكمة، عموداً شوكياً أبيض طويلا، ينتهي بذيل ضخم، ينتصب ويتماوج مع المد والجزر، في حين ان الريح الشرقية ترفع مياه البحر بانتظام خارج مدخل الميناء.

وسألت السائحة الساقي، وهي تشير إلى عظمة ظهر السمكة الضخمة التي كانت تتأهب للذهاب مع الجزر:

ـ ما هذا الشيء؟

ـ انه ذيل قرش.

قال هذا، وهو يحاول ان يشرح لها ما حدث. قالت:

ـ لم أكن أعرف ان للقرش ذيلا أنيقاً جميلا إلى هذا الحد.

وقال الرفيق لها:

ـ ولا أنا أيضاً.

وفي الكوخ، كان العجوز لا يزال نائماً على وجهه، والغلام قابع إلى جواره.

وكان العجوز يحلم بالسباع!

«تمت»

صدر منها

- الأرض الطيبة
- سوف تشرق الشمس
- رجال ونساء وحب
- عدالة السماء
- غادة طيبة
- ذهب مع الريح (١)
- ذهب مع الريح (٢)
- عذراء وثلاثة رجال
- الشيخ والبحر
- جريمة في الريفيرا
- غادة الكاميليا
- أحدب نوتردام
- الفرسان الثلاثة (١)
- الفرسان الثلاثة (٢)
- الكونت دي مونت كريستو
- دافيد كوبرفيلد
- آلام فرتر
- الكأس الأخيرة
- ايفانهو (أو الفارس الأسود)
- الرجل الغامض

المؤسسة العلمية للوسائل التعليمية
حلب - المسلمية - المنطقة الحرة -

دار الشرق العربي
بيروت - شارع سورية - بناية درويش